التعليقاتُ السَّنية
بنقض إقرار المشركين
بتوحيدِ الرُّبوبية

د. عمر عيسى عمران

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢١٠٩)، لسنة ٢٠١٥م

مكتبة الوائل

المركز المتخصص في عالم الطباعة الرقمية

العراق ــ بغداد ــ الأعظمية

هاتف: ٠٧٧٠٩٨١٤٦٤٤

البريد الألكتروني

maher_mohands@yahoo.com

تنضيد وطباعة: ماهر عدنان عبد الرزاق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ للّهِ وليِّ الحمد والثناء، وأهلِ الكرمِ والنعماء، وصلّى الله على سيدنا محمد نبيّه المكين، ورسوله الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الغرِّ الأبرار الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإنَّ من أهمِّ ما ترنو إليه عينا المتكلم هو تصحيحُ الفكر، وتخليصُه من رواسب التبعية وشوائب التقليد، وضرورةُ إعمال النظر لتحقيق المعرفة الدينية، وبخاصّة العقدية؛ لأهميتها، وخطورة موضوعاتها التي ترتبط ارتباطًا وثيق الصّلة بحياة الإنسان في تحديد علاقته مع ربِّه أوّلاً، ومع أخيه الإنسان في بيئته ومجتمعه.

من هنا كان الحديث عن المجتمع المسلم وضرورةِ تماسكِ أبنائه وتعاضدِهم في بنائه، يستدعي الحديثَ عن إزالة مسبِّبات البغض والحقد جميعها، وبخاصّة إذا كانت أسبابها ناجمة عن سوء فهم للدين وأحكامه؛ فالدين سلاح خطير في يدِ من يفتقدُ أدوات الفهم الصحيح له، لأنَّ صاحبه - بلا شكٍّ- سيعملُ حينَها على طحن مجتمعه المسلم بترسانة من الجهل والإسقاطات النفسية والأزمات الفكرية بهدف زعزعة بنيان المجتمع واستقراره، وصولاً إلى إنْهاء حالة السلم المجتمعي، وما يستتبع ذلك من احتراب الأبناء، وتدمير البلاد، وتفكّك أواصر الدول.

لقد بات من المؤكّد أنَّ المقولات التي كنّا في السابق نغضُّ الطرفَ عنها لانحصارِها في دائرة ضيّقة لم يَعُدْ في مُكْنتنا اليوم فعلُ

ذلك ﻓﻲ ظلِّ الإنفجار المعلوماتي الكبير، وانتشار مواقع التواصل الإجتماعي، الأمر الذي سهَّل وصولَ الفكرة إلى أقاصي المعمورة ﻓﻲ لحظة، وعليه لابدَّ من مناقشة المسائل أو الشبه وتفكيكها وصولاً إلى وضع الحلول الناجعة لها.

من هذه المقولات مقولةُ صحة إقرار مشركي الجاهلية بتوحيد الربوبية؛ فقد درجت أقلام الكثير من العلماء والباحثين قديماً وحديثاً ومن مختلف المدارس على التسليم بفرضية مفادُها أنَّ مشركي الجاهلية مقرون بتوحيد الربوبية، وأنَّ انحرافهم نابعٌ من عدم إقرارهم بالإلوهية فقط مع وقوفهم على معنى الشهادتين ومعرفتهم بها؛ ولو اقتصر الأمر على دائرة البحث العلمي والإجتهاد ﻓﻲ الوقوف على مراد الشارع لاتسع الأمر كما اتسع ﻓﻲ عشرات المسائل غيرها ﻓﻲ القديم والحديث؛ لكن أنْ يصل الإختلاف ﻓﻲ المسألة إلى أنْ يكون تكأةً يتكئ عليها بعضهم؛ لتسخيف القول المخالف وعدِّه ضعيفاً ومتهافتاً، ومن ثمَّ يبني عليه بعض الأحكام السلبية بحق القائلين به؛ فهذا مسلك غير محمود، أو صحيح، ولا ينسجم مع واجب الأخوة الإسلامية، وما يجب أنْ يصار إليه ﻓﻲ مثل هكذا مسائل من التماس المعاذير للآخر وحسن الظن به.

لأجل ذلك جاء هذا البحث لعرض المسألة ونقدها نقدا علميا بعيدًا عن التعصب لرأي، أو قول، أو حكم سابق، ولتحقيق هذا الغرض قام البحث بإثارة التساؤل حول إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، وحاول معالجة هذا التساؤل والبحث عن إجابات وافية له، ومن غير التفات مطلقًا للردِّ على اتجاه معين، أو الإنتصار لآخر، وإنَّما

كان رائده استيضاح الإجابة عن ذلك التساؤل من خلال وضعه على طاولة البحث المجرد عن الهوى والعصبية المقيتين.

وأشير أخيرًا إلى أنَّني سبقت إلى إثارة هذه المسألة، والتي كثر الأخذ فيها والردُّ[1] بما يُدلِّلُ على كونها مسألة إجتهادية لا تخرج بأيٍّ من طريۓ المسألة عن حدِّ الإعتدال والوسطية، وما أرجوه وآمله هو أنْ أكون وفقت ۓ رسم صورة واضحة المعالم عن هذا الموضوع الشائك، على تعتعته ولمِّ صاحبه، وقد يُدْرِكُ الرجلُ بنيّتِه ما لا يُدْرِكُهُ بعملِه.

---

(١) من الجهود التي تعرضت لنقد الفكرة، ما يأتي:

- ❖ توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، لشيخ الأزهر: الشيخ يوسف الدجوي، مجلة الأزهر(نور الاسلام)، المجلد الرابع- الجزء الرابع، والجزء الخامس، وتجدها مطبوعة ۓ "مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي"، جمعها الشيخ محمد زاهد الكوثري، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م: ص٢٤٨ وما بعدها، وص٢٥٨ وما بعدها. ويعدُّ مقال الشيخ الدجوي (وهو ۓ قسمين) من أكثر المراجع التي أفاضت ۓ نقد الفكرة، وأزعمُ أنَّ هذا البحثَ الذي أعددتُه فيه إضافاتٌ مهمةٌ على ما سطّره الشيخ رحمه الله تعالى.
- ❖ التنديدُ بمن عدَّدَ التوحيد(إبطال محاولة التثليث ۓ التوحيد والعقيدة الإسلامية)، حسن بن علي السقاف، دار الإمام النووي، ط٢، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
- ❖ كلمة هادئة ۓ بيان خطأ التقسيم الثلاثي للتوحيد، للدكتور: عمر عبد الله كامل، دار الرازي، الأردن، ط٢، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م. وهذان التأليفان الأخيران هما رجع الصدى لما قرّره الشيخ الدجوي رحمه الله تعالى ۓ جوابه السابق.

توطئة

حقيقة توحيد الربوبية

أولًا: الربوبية لغة واصطلاحًا

مصدر ربَّ يربُّ ربًّا وربابةً، والراء والباء تدلُّ على أصول، فالأوّل إصلاح الشيء والقيام عليه؛ فالربّ: المالك والخالق والصاحب، والربّ: المصلح للشيء، يقال رَبَّ فلانٌ ضيْعَتَه إذا قام على إصلاحها... والله –جلّ ثناؤه – الربّ؛ لأنّه مصلحُ أحوال خلقه [1] .

وفي هذا المعنى يقرر الزجّاجي بأنَّ: (الربّ: المصلح للشيء، يقال: رَبَبت الشيء أربُهُ رَبّا وربابَة: إذا أصلحته وقمت عليه، وربُّ الشيء مالكه، فالله مالك العباد ومصلحهم، ومصلح شؤونهم، ومصدر الرب: الربوبية، وكلُّ من ملك شيئًا فهو ربُّهُ...) [2] .

ويقول ابن الأنباري: (الربُّ ينقسم على ثلاثة أقسام: يكون الربّ المالك، ويكون الربّ: المطاع، قال الله تعالى ﴿ **فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا** ﴾، ويكون الربُّ: المصلح)[3] .

ممّا تقدّم يمكن أنْ نوجزَ أهمَّ خصائص الربوبية، والتي تشكل بمجموعها مرتكزات التعريف الإصطلاحي كما سنقف عليه لاحقًا، وهذه المرتكزات هي:

أوّلًا: مالكُ الشيء وصاحبُه؛ فكلُّ من ملك شيئًا فهو ربُّه[4] .

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: (٢/٣٨١- ٣٨٢).

(٢) اشتقاق اسماء الله، للزجاجي: (ص٣٢).

(٣) تهذيب اللغة، للأزهري: (١٥/١٧٧).

(٤) المصباح المنير، للفيومي:(١/٢٢٩)، مقاييس اللغة: (٢/٣٨١).

يقول الزبيدي: (الربُّ هو اللّه عزّ وجلّ، وهو ربُّ كلِّ شيء أيْ مالكُه، وله الربوبية على جميع الخلق لا شريكَ له، وهو ربُّ الأرباب، ومالك الملوك والأملاك)[1].

ثانياً: السيّد المطاع، يقول ابن منظور: ربيت القوم: سستهم، أي كنت فوقهم، ويقال: ربَّ فلانٌ قومَه: أي ساسهم، وجعلهم ينقادون له، وربيت القوم: أي حكمتهم وسدتهم[2].

ثالثاً: المصلحُ للشيء المدبِّرُ له، القائم على تربيته؛ لأنَّ اللّٰه سبحانه مدبِّرُ الخلق ومربيهم[3].

وقد جاء الإستعمال القرآني للمفردة بهذه المعاني الثلاثة، وممّا يدلُّ على المعنى الأوّل: بمعنى مالك الشيء وصاحبه، قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال القرطبي: أيْ مالكهم وكلُّ من ملك شيئًا؛ فهو ربُّهُ[4]، وبه قال الطبري[5]، والماوردي[6]، وابن كثير[7].

ويدلُّ على استعمالها بالمعنى الثاني، وهو السيّد المطاع، قولُه تعالى حكايةً عن نبيِّ اللّٰه يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ وقوله تعالى عنه ﴿أَمَّآ

(١) تاج العروس، للزبيدي:(١/ ٢٦٠).

(٢) لسان العرب، لابن منظور: (٥/ ٩٤).

(٣) مقاييس اللغة: (٢/ ٣٨١).

(٤) الجامع لاحكام القران، للقرطبي:(١/ ٩٦).

(٥) جامع البيان، للطبري:(١/ ٤٨).

(٦) النكت والعيون، الماوردي: (١/ ٥٤).

(٧) تفسير القران العظيم، لابن كثير: (١/ ٢٣).

﴿أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ وقوله تعالى عنه ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، وبه قال الطبري[1]، والماوردي[2] والقرطبي[3]، وابن كثير[4]، ويدلّ على استعمالها بالمعنى الثالث، وهو المصلح للشيء المدبر له، قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ وبه قال القرطبي[5]، وابن كثير[6]، والطبري[7].

ثانيا: التوحيد لغةً واصطلاحًا

تدورُ معاني التوحيد في اللغة حولَ الوحدةِ والإنفرادِ والتفردِ؛ فالتوحيدُ مصدرٌ للفعل الثلاثي المزيد بتضعيف عينه، يقال: وحّد يوحِّد توحيدًا؛ فهو على زنة تفعيل، وهي تعني الوحدة والإنفراد والتفرد والحكم والعلم بأنِّ الشيء واحد.

والمقصود من التفعيل: نسبة كالتصديق لا الجعل؛ فمعنى وحدّتُ اللّه: نسبته إلى الوحدانية لا جعلته واحدًا؛ لأنَّ وحدانيته صفة، لا بجعل جاعل، أمَّا التوحيد؛ فهو فعل المكلّف؛ فيقال اللّه واحد أحد: أيْ متفرد بالذات والصفات في عدم المثل والنظير، ووحدَّ اللّه،

---

(١) جامع البيان:(١/٤٨).

(٢) النكت والعيون: (١/٥٤).

(٣) الجامع لاحكام القران: (١/٩٦).

(٤) تفسير القران العظيم: (١/٢٣).

(٥) الجامع لاحكام القران: (١/٩٦).

(٦) تفسير القران العظيم: (١/٢٣).

(٧) جامع البيان:(١/٤٧).

نسبه إلى الوحدة والإنفراد؛ فهو سبحانه منفردٌ في ذاته وصفاته وأفعاله[1].

وعلى ضوء ما تقدَّم عُرِّفَ توحيد الربوبية اصطلاحًا[2]؛ بأنَّ: (معناه توحيد الله بأفعاله، أفعال الله كثيرة منها: الخلق والرزق، والإحياء، والإماتة، وتدبير الملك، والنفع والضرِّ، والشفاء، والإجارة، يجير ولا يجار عليه، وإجابة دعوة المضطر، وإجابة دعوة الداعي، ونحو ذلك من أفراد الربوبية[3]؛ فالمتفرد بذلك على الكمال هو

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: (٩٠/٢)، القاموس المحيط، للفيروزآبادي: (٣٤٣/١)، لسان العرب، لابن منظور: (٢٣٠/١٥).

(٢) سألتزم تعريفات ومحدِّدات المدرسة السلفية؛ لأنَّها أكثر المدارس إيضاحاً للفكرة ومنافحة لترسيخها، ولا يعني أنه لم يوجد من غير المدرسة هذه من أقرَّ بالفكرة نفسها، ونافح عنها.

(٣) ومنها أيضًا معرفته وتوحيده بأنَّ له العظمة والكبرياء التامين المطلقين، وعليه لا يرد زعم من يرى أن إبليس المطرود من رحمة الله كان عارفًا بالله وموحدًا له، حالُه حالُ آدم، وكلاهما أمر؛ فعصى، ووفق قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) علينا الجزم بأنَّ مآله إلى الجنة، ولو بعد حين، لكن بأدنى تأمل للمسألة نجد البون شاسعًا بين آدم عليه السلام وبين إبليس المطرود من رحمة الله تعالى، فإبليس نازع الربَّ في كبريائه، ولم تكن معصيته وطرده بسبب مخالفة الأمر الإلهي كآدم فحسب، بل بسبب الكبرياء، والغرور، والزهو الذي ملأ نفس إبليس عظمة، وهذه منازعة لأخصِّ خصائص ربوبية الله وألوهيته، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار). أصله في صحيح مسلم (٢٦٢٠) وأخرجه الإمام أحمد (٧٠٧٨)،

=

الله - جلّ وعلا- فتوحيد الربوبية توحيد الله بأفعاله سبحانه)[1].

=

وأبــوداود (٤٠٩٠)، و ابــن ماجــة (٤١٧٤)، و ابــن حبــان في صــحيحه (٣٢٨)وغيرهم. ولذا قال سفيان بن عيينة: "من كانت معصيته في الشهوة فارجُ له التوبة، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغُفر له. ومن كانت معصيته في كِبْر فاحش على صاحبه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فلُعِن". أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، برقم (١٠٨٠٣)، ويدلُّ على ذلك قراءة ابن كثير لقوله تعالى: (**قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين**)؛ اذ قرا "أستكبرت" موصولة الألف على الخبر، وتكون أم منقطعة بمعنى "بل"، أي من المتكبرين على ربِّك. ينظر: تفسير القرطبي: (٢٢٨/١٥- ٢٢٩).

ويؤكد هذا المعنى ما ذُكِرَ من أنَّ اللعين أبى تنفيذ الأمر الإلهي مستكبرًا بعد أن غاص في أوحال الأنا والزهو والغرور بالنفس، فقال تعالى (**إلاَّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**)، ويبقى هنا سؤال وهو أنَّه اذا تمَّ تفسير العالين بأنَّهم المستكبرون؛ فما فائدة التكرار؟ فنقول الإستكبار يأتي على معان، واحد منها العلو، والآية نظير قوله تعالى عن فرعون (**إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ**)؛ فالعلو تكبر مع ظلم للآخرين، أو قهر لهم، أو قد يقصد به الشرك، على ما ذكره الماوردي في تفسيره النكت والعيون: (٥٥/٤)، وعليه فيمكن أن يقال: أن إبليس وبسبب استكباره وطلبه لذلك، صار إلى الشرك في جانب الربوبية، ولأجل ذلك وسم بالكفر، وحشر في زمرة الكافرين، والله تعالى أعلم بمراده.

(١) التمهيد لشرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، لمحمد بن عبد الوهاب، تأليف الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، ط١، دار التوحيد:١٤٢٣ه- ٢٠٠٢م : (ص٦).

وضدُّ التوحيد الشرك، وهذه المفردة من المهمِّ أيضًا الوقوف عندها؛ لأنَّه قد شاع القول بأنَّ المشرك مقرٌ بالله، وأنَّ شركه نابعٌ من إشراكه مع الله ندًّا له في العبادة، يقول الصنعاني: (ولفظ الشريك يشعر بالإقرار بالله تعالى)[1].

أقول: قد يكون ذلك صحيحًا في بعض النصارى والمنافقين، ممّن قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾[2]، يقول ابن عباس: يعني النصارى[3].

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن الحسن؛ أنَّه سئل عن هذه الآية؛ فقال: "**وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون**". قال: ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء للناس، وهو مشرك بعمله ذاك[4].

---

(١) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق: عبد المحسن بن حمد العباد البدر، ط١، مطبعة سفير، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٤هـ: (ص١٣).

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٦.

(٣) رواه العوفي عن ابن عباس، ينظر: تفسير زاد المسير، لابن الجوزي: (٤٧٦/٢)، وفيها تفسيرات أخرى إقتصرت منها على ما يمكن توظيفه لخدمة ما يريد الباحث التأسيس له.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط٣، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ: (٢٢٠٧/٧، ح- ١٢٣٦).

وأخـرج أيضًـا عـن النضـر بـن عربـي، في قولـه: "**ومـا يـؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون**"، قـال: فمـن إيمـانهم أنْ يقـال لهـم: من ربُّكم؟ فيقولون: الله. ومن يدبِّرُ السموات والأرض؟ فيقولون الله. ومـن يرسـل عليهم المطـر؟ فيقولـون الله. ومـن ينبـت الأرض؟ فيقولـون الله، ثـم هـم بعـد ذلـك مشـركون؛ فيقولـون: إنَّ لله ولـدًا، ويقولـون: ثالث ثلاثة[1].

وأخرج أيضًـا عـن عـن عاصـم الأحـول، عـن عـزرة، قـال: " دخـل حذيفة على مريض؛ فرأى في عضده سيرًا فقطعه أو انتزعه، ثم قال: "**وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مشركون**"[2]

جاء في تفسير الثعلبي: (وقال بعض أهل المعاني: معناه وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهـم مشـركون قبـل إيمـانهم، نظـيره قولـه تعـالى: "وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشًـا". يعني كـانوا هـم أشدّ منهم بطشًا)[3].

---

(١) المصدر نفسه: (٢٢٠٨/٧، ح- ١٢٣٧)، ولا يخفى أنَّ من أثبت الولد لله، أو إنفصال الأجزاء عنه، أو هو ثالث ثلاثة؛ فهذا لم يعرف الربَّ، ولم يقف مطلقا على حقيقته التي هي بالضدِّ من هذه المزاعم، ومن لم يعرف ربَّه لايقال أنَّه مؤمنٌ مقرٌ به.

(٢) تفسير القران العظيم، لابن كثير: (٢٢٠٨/٧، ح- ١٢٠٤٠).

(٣) تفسير الكشف والبيان عن تفسير القران، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م: (٢٦٣/٥).

ويقول ابن الجوزي: (فان قيل: كيف وصف المشرك بالإيمان؟ فالجواب: أنَّه ليس المراد به حقيقة الإيمان، وإنَّما المعنى: أنَّ أكثرهم، مع إظهارهم الإيمان بألسنتهم، مشركون)[1].

أقول: قد نجد محملاً حسنًا لاستشعار الشيخ الصنعاني فيما لو اقتصرنا على النصارى والمنافقين ممن يُقِّرُ بوجوده تعالى، أو حتى ممن يُقّر بكونه تعالى خالقاً أو مُسخراً رازقاً من مشركي الجاهلية بيد أن ذلك لا يبيح لنا أن تذهب إلى الإطلاق في أحكامنا، بل لا بد علينا حينها من تقييد إطلاقاتنا وأحكامنا ولا ريب أن مثل هكذا مباحث دقيقة لايستقيم أنْ تكون خاضعة للإستشعار، ولا يصحُّ الحديث عنْها إلاَّ وفق مدلول المفردة لغة أو إصطلاحًا، وهو باب لو فتح؛ فيقينًا أنَّه لنْ يغلق أبدًا.

وعليه فمن يزعم هنا أنَّ مشركي الجاهلية مقرون بالله تعالى بمعنى إقرارهم بتوحيد الله تعالى في الربوبية سوف يُشاع؛ فعليه أن يتأنى قليلاً، ويُعمل فكرَه في الدلائل قبل أن يُخضِعَ مثل هذه المباحث الخطيرة للإستشعار النفسي[2].

(١) تفسير زاد المسير، لابن الجوزي: (٤٧٦/٢).

(٢) كما أكدنا سابقا فإن المسألة اجتهادية ولا نكير على الصنعاني رحمه الله تعالى ولا غيره في تقرير هذه المسألة، فلكلٍّ مأخذه الاستدلالي فيها، ونحن نناقش وننقض الفكرة من منطلق كونها اجتهادية، ولهذا نحشد من الأدّلة ما نراه الأوفق مع وجهة نظرنا من غير ليٍّ للنص ولا تحريف له أو تعطيل أو بترٍ، والله تعالى أعلم بمراده.

يقول ابن فارس: (مادة الشرك المكوّنة من حرف الشين والراء والكاف أصلان:

أحدهما: يدلُّ على مقارنة وخلاف وانفراد.

والآخر: يدلُّ على امتداد واستقامة[١].

أمَّا الأوّل: فهو"الشرك" بالتخفيف أي بإسكان الراء، أغلب في الإستعمال، يكون مصدرًا واسمًا، تقول: شاركته في الأمر، وشركته فيه أشركه شركًا، بكسر الأوّل، وسكون الثاني، ويأتي: شركة، بفتح الأوّل وكسر الثاني فيها، ويقال: أشركته: أي جعلته شريكاً[٢].

يقول ابن فارس: الشركة هو أنْ يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدُهما، ويقال: شاركت فلانًا في الشيء؛ إذا صرت شريكه، وأشركت فلانًا؛ إذا جعلته شريكا لك، قال تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ ومعنى الآية: اجعله شريكي فيه[٣].

ومن معاني اشتقاقات هذا الأصل التسوية، يقول ابن منظور: يقال: طريق مشترك: أي يستوي فيه النَّاس، واسم مشترك تستوي فيه معان كثيرة[٤].

---

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس: (٣/٢٦٥).

(٢) الصحاح، للجوهري: (٤/١٥٩٣).

(٣) مقاييس اللغة: (٣/٢٦٥).

(٤) لسان العرب:(٧/٩٩).

أمَّا الأصل الثاني: وهو الذي يدلّ على الإمتداد والإستقامة، فيطلق أيضًا على معان: منها الشرك(بفتحتين) حبالة الصائد، والواحدة منها: شركة، منه قيل: (وأعوذ بك من الشيطان وشركه) بفتح الراء[1].

أقول: لغتنا دقيقة جدًّا، ولذلك فإنَّ أهل الإنحراف من العجمة أوتوا[2]، ومن أراد أن ينأى بنفسه عن صفة أهل الإنحراف؛ فليرجع

---

(١) الصحاح، للجوهري:(١٥٩٤/٤).

(٢) جاء في مجالس العلماء، للزجاجي، ما نصّه: (جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء؛ فقال: يا أبا عمرو، أيخلف الله وعده؟ قال: لا . قال: أفرأيت من وعده الله على عمل عقابًا أيخلف وعده فيه؟ فقال أبو عمرو: من العجمة أتيت أبا عثمان، إنَّ الوعد غير الوعيد، إنَّ العرب لا تَعِدُ عارًا ولا خُلفًا، والله جلَّ وعزَّ إذا وعد وفى، وإذا أوعد ثم لم يفعل كان ذلك كرمًا وتفضلًا، وإنَّما الخُلف أن تَعِدَ خيرًا ثم لا تفعل. قال: فأوجدني هذا في كلام العرب. قال: نعم، أما سمعت قول الأوّل:

ولا يرهب ابنُ العم ما عشت صولتي ... ولا أختتي من صولة المتهدد

وإنــــي وإن أوعدتـــه أو وعدتـــه ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وتكلّم في هذه الآية ﴿ **وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ** ﴾ سورة الأعراف: الآية ٤٤، فقيل: كيف خرج القول من الفريقين بلفظ واحد، وهو وعد ووعيد ؟ فقال: لأن العرب تقول: وعدته خيرا ووعدته شرا، فإذا أسقطوا ذكر الخير والشر قيل في الخير: وعدت، وفي الشر: أوعدت). مجالس العلماء، للزجاجي، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م : (ص٦٢-٦٣).

لزامًا الى اللغة في تقرير مسائله ومباحثه جميعًا؛ فهم أهل اللسان، وصاحب البيت أدرى بما فيه.

من هذا المنطلق وتلك المعاني التي ساقها ابن فارس يتّضح أنَّ لفظ الشرك يدور حول الآتي:

١. **<u>الشركة</u>**. وهو أنْ يكون الشيء بين اثنين **<u>لا ينفرد به أحدُهما</u>**.
٢. **<u>التسوية</u>**.
٣. **<u>الإمتداد والإستقامة</u>**، ويطلق أيضًا على معان: منها الشرك (بفتحتين) **<u>حبالة الصائد</u>**.

فأين الإقرار بتوحيد اللّه تعالى عند من تلبَّس بهذه المعاني؟، لا يقال هنا: بأنَّ من حصر الشيء بين اثنين، أو قام بالتسوية بينهما؛ فهو قائلٌ بالإقرار بهما أو بأحدهما؟ فهذا كلام من جنس الخطابيات التي لا علاقة له بالتحقيق البرهاني، فالقول بالشرك ينفي الإقرار جزمًا؛ وهذا ممَّا يستفاد من اللغة، وهو ما ينبغي إبرازه للقارئ؛ فكيف يُقِرُّ باللّه ربًا من يشركُ معه غيرَه ؟ ألا ترى أن من أقر بصلاة الظهر مكونة من (٦) ركعات فهو لم يقر بصلاة الظهر مكونة من (٤) ركعات وحينها فلا يقال عنه أنه مقر بصلاة الظهر وهكذا من أقر بخالق له شريك فهو لم يحقق معنى الإقرار باللّه تعالى

كما أن هناك من يتلبّس بالشرك، وهو لايعرف اللّه أصلاً، فضلا عن الإقرار به، كحال كثير من معتنقي الديانات الهندية، والفارسية، والصينية، ممّن لهم معبودات متكثرة بتكثر بني البشر وحاجاتهم، وكل ذلك سنتفصل به لاحقاً .

من هنا يقرِّر الشيخ ابن تيّمية بأنَّ الشرك قد يحصل عند من يجعل غير اللّه مستقلاً بالفعل، ومن يفعل ذلك؛ فلا شك أنَّه لا يصحُّ

أنْ نزعم أنَّه مقرٌ بالله، ولو كان استشعارًا، يقول الشيخ ابن تيمية: (فأمَّا الأوّل- الشرك في الربوبية فهو إثبات فاعل مستقل غير الله، كمن يجعل الحيوان مستقلاً بإحداث فعله، ويجعل الكواكب، أو الأجسام الطبيعية، أو العقول أو النفوس، أو الملائكة، أو غير ذلك مستقلاً بشيء من الأحداث، فهؤلاء حقيقة قولهم: تعطيل الحوادث عن الفاعل...)[1]؛ فماذا بقي من معرفة الله والإقرار به بعد تعطيله عن فعله، ونسبة الحوادث لغيره![2].

وسيقف القارئ حينها على أنَّ الفوضى التي حصلت في مسألتنا إنَّما هي في الحقيقة نابعةٌ من إهْمال التصور اللغوي الحقيقي والدقيق

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق: د.محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤١١هـ - ١٩٩١م: (٣٩٠/٧).

(٢) ولهذا؛ فإنَّ الشيخ أبا بكر الجزائري -وهو من كبار علماء الإتجاه الأثري- يعرف الشرك اصطلاحًا بالقول: (هو كلُّ ما ناقض التوحيد، أو قدح فيه) عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري: (ص١٠٥). كأنْ: (يثبت لغير الله- سبحانه وتعالى- شيئًا من صفاته المختصة به، كالتصرف في العالم بالإرادة الذي يُعبُّر عنه بكن فيكون، أو العلم الذي هو من غير اكتساب بالحواس... أو الإيجاد لشفاء المريض، واللعنة لشخص، والسخط عليه حتى يقدر الرزق، أو يمرض، أو يشفي لذلك السخط، أو الرحمة لشخص حتى يبسط له الرزق، أو يصح بدنه ويسعد...) الفوز الكبير في أصول التفسير، الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ «ولي الله الدهلوي» (ت ١١٧٦هـ)، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، دار الصحوة - القاهرة، ط٢- ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م: (ص٣).

للمفردات وكيفية توظيفها بدقة، وهذا الإهمال نتج عنه تصورات خاطئة ومغلوطة، كما سوف يتضح.

المبحث الأول
تقرير الشبهة

ثمّةَ آياتٌ قرآنيةٌ اتكأ عليها بعضُهم؛ للتدليل على أنَّ المشركين كان لديهم نوعُ إقرار بتوحيد الربوبية والإعتراف بوجود الربِّ خالقًا ورازقًا ومحييًا ومميتًا ومسخِّرًا مدبِّرًا، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾[1]، وكذلك قوله ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾[4]، وفي سورة الزمر قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[5].

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦١ .

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٣ .

(٣) سورة لقمان: الآية ٢٥ .

(٤) سورة الزخرف: الآية ٩ .

(٥) سورة الزمر: الآية ٣٨ .

وفي هذا الصدد، يقول الشيخ ابن تيمية في مجموع الفتاوى: (فإذا تقرَّر هذا؛ فالشرك إنْ كان شركًا يكفر به صاحبُه. وهو نوعان: - شركٌ في الإلهية وشركٌ في الربوبية. فأمَّا الشركُ في الإلهية فهو: أنْ يجعل لله ندًّا - أيْ: مثلاً في عبادته، أو محبته، أو خوفه، أو رجائه، أو إنابته؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلاَّ بالتوبة منه. قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[1]، وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشركي العرب؛ لأنَّهم أشركوا في الإلهية قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ امنوا اشدوا حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2] الآية: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[3] الآية: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾[4] وقال تعالى: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ٢٤﴾[5] - إلى قوله - ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ٢٦﴾[6] .وقال النبيُّ ﷺ لحصين: كم تعبد؟. قال: ستّة في الأرض، وواحدًا في السماء. قال: فمن الذي تعدُّ لرغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء.

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٦٥.

(٣) سورة الزمر: الآية ٣.

(٤) سورة ص: الآية ٥.

(٥) سورة ق: الآية٢٤.

(٦) سورة ق: الآية ٢٦.

قال: ألا تسلم؛ فأعلمك كلمات! فأسلم، فقال النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم، قلْ: اللّهم ألهمني رشدي، وقني شرَّ نفسي[1]، وأمَّا الربوبية؛ فكانوا مقرين بها قال اللّه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2] وقال: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[3] إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[4]، وما اعتقد أحدٌ منهم قط أنَّ الأصنام هي التي تنزل الغيث، وترزق العالم، وتدبّره، وإنَّما كان شركهم كما ذكرنا أنْ اتخذوا من دون اللّه أندادًا يحبونهم كحبِّ اللّه، وهذا المعنى يدلُّ على أنَّ من أحبَّ شيئًا من دون اللّه كما يحبُّ اللّه تعالى؛ فقد أشرك، وهذا كقوله: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾[5].

وكذا من خاف أحدًا كما يخاف اللّه، أو رجاه كما يرجو اللّه وما أشبه ذلك.

وأمَّا النوع الثاني: فالشرك في الربوبية؛ فإنَّ الربَّ سبحانه هو المالك، المدبِّرُ المعطي، المانع، الضّار، النافع، الخافض، الرافع،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه: (٣٩٧/٥،ح- ٣٤٨٣)، وقال: (قال هذا حديث غريب، وقد روي هذا الحديث عن عمران بن حصين من غير هذا الوجه).

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦١ .

(٣) سورة المؤمنون: الآيات ٨٤ — ٨٥ .

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٨٩ .

(٥) سورة الشعراء: الآيات ٩٦ — ٩٨ .

المعزّ المذلُّ؛ فمن شهد أنَّ المعطي، أو المانع، أو الضار، أو النافع، أو المعز، أو المذل غيره؛ فقد أشرك بربوبيته. ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك؛ فلينظر إلى المعطي الأوّل مثلاً؛ فيشكره على ما أوْلاه من النعم، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف؛ فيكافئه عليه لقوله عليه السلام: (من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه)[1]؛ لأنَّ النعم كلها لله تعالى كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾[3]؛ فالله سبحانه هو المعطي على الحقيقة؛ فإنَّه هو الذي خلق الأرزاق، وقدّرها، وساقها إلى من يشاء من عباده؛ فالمعطي هو الذي أعطاه، وحرَّك قلبه لعطاء غيره؛ فهو الأوّل والآخر[4].

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في بيان قواعده الأربع:

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه: (١٦٧٤)، وأحمد في مسنده: (٥٣٦٥)، كلاهما من طريق عبدالله بن عمر.

(٢) سورة النحل: الآية ٥٣.

(٣) سورة الإسراء: الآية٢٠.

(٤) مجموع الفتاوى، تقي الدين، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م: (١/٧٢).

القاعدة الأولى: أنْ تعلم أنَّ الكفار الذين قاتلهم رسول اللّه ﷺ مقرون بأنَّ اللّه تعالى هو الخالق الرازق المدبر، وأنَّ ذلك لم يدخلهم في الإسلام.

القاعدة الثانية : أنَّهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلَّا لطلب القربة والشفاعة.

القاعدة الثالثة: أنَّ النبيَّ ﷺ ظهر في ناس متفرقين في عبادتهم، منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، وقاتلهم رسول اللّه ﷺ ولم يفرق بينهم.

القاعدة الرابعة: أنَّ مشركي زماننا أغلظُ شركًا من الأولين؛ لأنَّ الأولين يشركون في الرخاء، ويخلِصون في الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائمًا الرخاء والشدّة[1].

أقول: بعد هذه النقولات عن الشيخ ابن تيمية، والشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ فمن الواضح أنَّهما يذهبان إلى تصوير واقع مشركي الجاهلية على أنَّهم يوحِّدون اللّه في ربوبيته، وأنَّ الأصنام التي كان مشركو الجاهلية يعبدونها ليس لها من الأمر شيء سوى كونها واسطة بين المشركين وربِّ العزّة الذي كانوا يقولون بوجوده بكلِّ ما اشتمل عليه من صفات، وهذا كما هو واضح من قرآءتهم للنصوص القرآنية.

---

(١) أصول الدين الإسلامي مع قواعده الأربعة، الشيخ محمد بن سليمان التميمي، ترتيب الشيخ محمد الطيب بن إسحاق الأنصاري المدني: ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م: (ص٢٢ - ٢٧).

وعلى هذا درج كثيرٌ من المتقدمين والمعاصرين من أتباع المدرسة ومن غيرها، وإن كانت المدرسة السلفية أكثر اعتناء بتقرير هذه الحقيقة في أكثر المصنفات، وربما عابوا على غيرهم عدم الاعتناء بابراز هذه القضية كما اعتنوا أنفسهم بذلك، يقول صاحب كتاب الشرك في القديم والحديث: (فقد ضلَّ الأشاعرة والماتريدية في هذا الباب؛ فلم يستطيعوا أنْ يأتوا بالتوحيد كما كان حقّه؛ فعرَّفوا التوحيد ببعض مدلولاته المعترف به لدى جمهور المشركين، وتركوا مدلوله الأصلي المبعوث لأجله الرسل- صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين- ألا وهو توحيده في الإرادة والقصد "توحيد الإلوهية")(١).

فهل هذه القراءة صحيحة لا يطرأ عليها احتمال مغاير، ولو بنسبة ضئيلة، أو أنَّ الإحتمال يعترضها بقوة، ويتطرق إليها بشّدة؟

لا شكَّ بأنَّ التتبع والاستقراء وتمحيص الأقوال في المسألة يدعونا بقوة إلى الجزم بضعف القراءة المشهورة عند المفسرين وغيرهم ممن استحكمت عندهم مقولة إقرار المشركين بتوحيد الربوبية؛، بل إنّ المشركين ما كانوا يعقلون معنى الربوبية، وإنْ تفوهوا بما يُشعر بذلك. وحقيقة لا أدْري من أين يأتي التصور الصحيح في هذه

---

(١) الشرك في القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا، ط٢، مكتبة الرشد، الرياض، أصل الكتاب رسالة علمية نال بها الباحث درجة العالمية" الماجستير" بتقدير ممتاز، من شعبة العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بإشراف: الأستاذ الدكتور: أحمد بن عطية الغامدي: (٣١/١).

القضية، ومشركو الجاهلية أبْعدُ ما يكونون عن معرفة بسائط الأشياء وبدهياتها؛ لذا نحن نجزم هنا، وبضرس قاطع بإنَّ اعتراف المشركين بتوحيد اللّه في الربوبية شابَه قصورٌ جليٌّ وواضح، وذلك أنَّ توحيد الربوبية - وهو اصطلاح حادث- يستدعي الجزم بأنَّ اللّه له الأمر والخلق، والتدبير الذي يستلزم الإعتقاد المشتمل على الجزم القاطع بأنَّه المعطي المانع، والنافع الضار، والمحيي المميت، والخافض الرافع إلى غير ذلك من مصاديق الإيمان بأنَّ اللّه هو المدبّر لكلِّ ما في العالم.

جاء في كتاب أصول الإيمان - وهو من إعداد نخبة من علماء المدرسة السلفية- ما نصُّه: (وبهذا يُعلم بأنَّ توحيد الأنبياء والمرسلين ينقسم إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: توحيد الربوبية، وهو الإقرار بأنَّ اللّه ربُّ كلِّ شيء ومليكه وخالقه ورازقه، وأنّه المحيي المميت النافع الضار، المتفرِّد بالإجابة عند الإضطرار، الذي له الأمر كلُّه، وبيده الخير كلُّه، واليه يرجع الأمر كلُّه، لا شريك له في ذلك)[1].

وستعرف أيَّها القارئ الكريم لاحقًا أنَّ المشركين ما كان عندهم مثلُ هذا الإقرار الذي يشتمل على الإذعان والإنقياد لهذه المعاني، وسوف تقف بصورة واضحة على ما من شأنه أنْ يؤكدَ لك أن المشركين أشركوا في جانب الربوبية كما أشركوا في جانب الألوهية.

---

(١) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة- إعداد نخبة من العلماء- مطبوع على نفقة وزارة الشؤون الإسلامية في المملكة العربية السعودية: (ص٩).

لكن قبل ذلك لا بدَّ أوّلاً من استيضاح حياة العرب الدينية قبل مجيء الإسلام لما في ذلك من أهمية كبيرة في بلورة تصوراتنا عن مقولاتهم الفكرية، والتي حكى القران جزءًا منها وكانت سببًا رئيسًا في إطلاق الحكم بإقرارهم بتوحيد الربوبية.

المبحث الثاني
العرب قبل الإسلام، حياتهم، تصوراتهم الدينية

لكي نناقش مسألة معينة أو ننقد فكرة ما فعلينا أوّلاً من تصورها تصورًا دقيقًا، والإحاطة بجوانبها كافّة؛ لذلك سأرسم هنا صورة عن حياة العرب قبل الإسلام، مع بيان تصوراتهم الدينية، وسأوقف القارئ الكريم، وأضع يده على حقيقة مهمة سأبقى أردّدها طيلة كتابة سطور البحث حتى لا تغيب لوهلة عن ذهنه، وهي أنَّ المشركين كانوا طرائق قددًا، ولم يكن لديهم في الغالب تصورٌ صحيحٌ عن أيِّ شيء.

المطلب الأول: حياة العرب قبل الإسلام

لقد كان للعرب قبل مجيء الإسلام أحوالٌ دينيةٌ واجتماعيةٌ وسياسيةٌ متنوعةٌ، وهي بمجملها كانت أحوالاً سيئة تعكس الواقع المتردي في النظم بعامّة، وهذا لم يمنع من وجود بعض الإيجابيات والمحاسن في ذلك المجتمع؛ بيد أنَّه ليس في مكنتنا عدُّها إلاَّ حالات شاذة عن القاعدة العامة التي ارتكزت عليها البنية الأساسية للمجتمع الجاهلي.

وأشير هنا إلى أنَّه ليس ضروريًّا وجودُ الإنحراف في بيئة؛ ليكون سببًا لبعثة الرسل والأنبياء؛ فالإنحرافُ ليس سببًا كافيًا لذلك، وإنَّما يُضافُ إليه التأسيس للإنحراف، وجعله قانونًا تتم شرعنتُه، وتقنينُه، ومن ثم حمايتُه، ولعلَّ هذا ما حصل في جزيرة العرب؛ فالعرب في الجاهلية على اختلاف قبائلهم وتعددِّها، وتنوعِّ أفكارهم وتشرذمها كانوا قد اعتنقوا جميع الأفكار الموجودة في ذلك العالم من إلحادية، ودينية، يهودية أو نصرانية، وصابئة، وعبادة كواكب ونيران وأحجار ونحوها، وقد تمَّت حمايةُ الخطأ بوصفه

قانونًا لا يمكـن أنْ يخرقـه أحـد، وبـدا ذلـك واضحًا جليًّـا ـِيْ عـدة مواطن ذكرها القران الكريم كعبادتهم مصنوعاتهم مع تصـريحهم القـولي بأنَّهـا لا تضـر ولا تنفـع، وكاسـتحلالهم النسـيء، وتحـريفهم الكتب الدينية، وتحريمهم المباحات، وتحليلهم المحرمات.

يقـول سـيد قطـب: (لقـد جـاء الإسـلام وـِيْ العـالم ركـامٌ مـن العقائـد والتصـورات والأسـاطير والفلسـفات والأوهـام والأفكـار... يختلط فيهـا الحق بالباطـل، والصـحيح بـالزائف، والـدين بالخرافـة، والفلسـفة بالأسـطورة... والضـمير الإنسـاني تحـت هـذا الركـام الهائـل يتخـبط ـِيْ ظلمـات وظنـون، ولا يسـتقر منهـا علـى يقـين. وكـان التيـه الـذي لا قـرار فيـه ولا يقـين ولا نـور، هـو ذلـك الـذي يحـيط بتصـور البشـرية لإلهـا، وصـفاته وعلاقتـه بخلائقـه، ونـوع الصـلة بـين اللّه والإنسان على وجه الخصوص.

ولم يكـن مسـتطاعًا أنْ يسـتقر الضـمير البشـري علـى قـرار ـِيْ أمر هذا الكون، وـِيْ أمر نفسه وـِيْ منهج حياته، قبل أن يستقر علـى قرار ـِيْ أمر عقيدته وتصوره لإلهه وصفاته، وقبـل أن ينتهـي إلى يقـين واضح مستقيم ـِيْ وسط هذا العماء وهذا التيـه وهـذا الركـام الثقيـل. ولا يدرك الإنسان ضرورة هذا الاستقرار حتى يطّلع على ضخامة هـذا الركـام، وحتـى يـرود هـذا التيـه مـن العقائـد والتصـورات والأسـاطير والفلسفات والأوهام والأفكار الـتي جاء الإسـلام فوجدها تـرين علـى الضـمير البشـري... ومـن ثـم كانـت عنايـة الإسـلام الأولى موجهـة إلى تحرير أمر العقيدة، وتحديد التصور الذي يستقرُّ عليه الضمير ـِيْ أمرِ اللّه وصفاته، وعلاقته بالخلائق، وعلاقة الخلائق به على وجه القطـع والـيقين. ومـن ثـم كـان التوحيـد الكامـل الخـالص المجـرد الشـامل،

الذي لا تشوبه شائبة من قريب ولا من بعيد.. هو قاعدة التصور التي جاء بها الإسلامُ، وظلَّ يجلوها في الضمير، ويتتبع فيه كلَّ هاجسة وكلَّ شائبة حول حقيقة التوحيد، حتى يخلصها من كلِّ غبش. ويدعها مكينة راكزة لا يتطرق إليها وهم في صورة من الصور. كذلك قال الإسلام كلمة الفصل بمثل هذا الوضوح في صفات الله، وبخاصّة ما يتعلق منها بالربوبية المطلقة؛ فقد كان معظم الركام في ذلك التيه الذي تخبط فيه الفلسفات والعقائد كما تخبط فيه الأوهام والأساطير ممَّا يتعلق بهذا الأمر الخطير، العظيم الأثر في الضمير الإنساني، وفي السلوك البشري سواء.

والذي يرجع للجهد المتطاول الذي بذله الإسلام لتقرير كلمة الفصل في ذات الله وصفاته وعلاقته بمخلوقاته، هذا الجهد الذي تمثله النصوص القرآنية الكثيرة... الذي يراجع هذا الجهد المتطاول دون أن يراجع ذلك الرُّكام الثقيل في ذلك التيه الشامل الذي كانت البشرية كلّها تهيم فيه.. قد لا يدرك مدى الحاجة إلى كلِّ هذا البيان المؤكَّد المكرَّر، وإلى كلِّ هذا التدقيق الذي يتتبع كلَّ مسالك الضمير)[1].

---

(١) في ظلال القران، سيد قطب (ت ١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ: (١/٢٣).

وما تقدّم سيقودنا إلى الجزم بأنَّ التدين لدى العرب لم يكن عقيدة؛ بل كان عادة[1] وهذا ما سوف تتضح معالمه لاحقًا في هذا البحث.

- **عصبية مقيتة**

في خضمٍّ ما ألمحنا إليه من تيه عظيم، وضلالٍ متفشٍ، وإنحرافٍ كبير، ونحوها من المظاهر التي سادت المجتمع الجاهلي، برزت حقيقةٌ صارخةٌ كانت سببًا رئيسًا في كلِّ انحرافات العرب الفكرية والدينية والسلوكية، وهي العصبية، وتتجلى وتتضح أهمية الحديث عن العصبية لدى العرب بوصفها عنصرًا رئيسًا من عناصر التكوين النسيجي للمجتمع العربي؛ فقد فرضت البداوة على أهلها التحزب والتكتل مما جعل الأرض مهيأة لتنامي العصبية بين القبائل في المجتمع العربي؛ فنجد بعض القبائل تعبد صنمًا ما، ويتعصبون له، بينما آخرون يعبدون صنمًا آخر غيره، ونجد بعض القبائل تعتنق ديانة ما، فيما تعبد أخرى ديانة ثانية، والجميع متمحورٌ عصبية حولها، والكلُّ يتعصب سواء للقبيلة، أو الفكر، أو السلوك والظاهرة الإجتماعية المعينة، وتجد الكلَّ يتطاحن مع الكلِّ، وكلُّهم في معترك واحد لنصرة فكرة باطلة، أو سلوك شاذ، وكانت تلك

(١) رسالة الاسلام: محمد رسول الله، مصطفى طلاس، ط٣، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٩٢م: (ص١١٩).

العصبية هي المعوق الرئيس لقبول الفكر الآخر، ولو كان صوابًا. ويصدق عليهم قول شاعرهم[1].

وهل أنا إلاَّ من غزية، إنْ غوت غويت، وإنْ ترشد غزية أرشد

وهكذا تعصب العرب فكريًّا ودينيًّا تبعًا لعشائرهم وقبائلهم؛ فاختلفت دياناتهم، وتنوعت مشاربهم، وتمزقت لحمتهم القومية؛ فلم تكن لديهم أحاسيس قومية، وروابط جنسية، ووشائج دموية يحتكمون إليها إلاَّ في بعض المدد الزمنية الضئيلة نسبيًا كما في معركة ذي قار؛ أمَّا في الغالب الكثير؛ فقد كانوا يتقاتلون، وينتهك بعضهم حرمات بعض، وكان بعضهم- نتيجة الإختلاف السياسي- كعرب العراق من المناذرة وعرب الشام من الغساسنة يتقاتلون بالنيابة عن غيرهم من الفرس والروم.

وكانت العصبية بين القحطانيين، وهم عرب اليمن والعدنانيين، وهم عرب الحجاز والعراق صفحة من الصفحات الأخرى للتنازع والاحتراب الحزبي بين الفئتين، وكان لهذا الصراع ولوضع القبائل وتكتلاتها في هذا الوقت أثرٌ خطيرٌ في تثبيت أنساب القبائل وتسجيلها، بل وصل الأمر بكلا طرفي النزاع إلى مديات واسعة تمثل بالتباهي بارتباط كلِّ فريق بجماعة من الأعاجم بروابط الدم والنسب

---

(١) القائل هو المتلمس، ينظر: شرح ديوان الحماسة، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (ت٤٢١هـ)، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م: (١/٥٧٧).

والثقافة، فافتخرت النّزارية بالفرس على اليمانية، وعدَّوهم من ولد "إسحاق ابن إبراهيم" وافتخروا بإبراهيم جدِّ العرب والفرس.

ومن هذا القبيل، قول إسحاق بن سويد العدوي [(1)]:

إذا افتخرت قحطان يوماً بسؤدد أتى فخرنا أعلى عليها وأسودا
ملكناهم بداً بإسحاق عّمنا وكانوا لنا عوناً على الدهر أعبدا
ويجمعنا والغر أبناء فارس أب لا نبالي بعده من تفردا

و لم يقف النّزاريون عند هذا الحدّ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، فزعموا أنَّ هذا النسب قديم، وأنَّ قرابة الفرس بالعدنانيين قديمة، وأنَّ الفرس كانت في سالف الدهر تقصد إلى البيت الحرام بالنذور العظام تعظيماً لإبراهيم الخليل بانيه، وأنَّه عندهم أجلُّ الهياكل السبعة العظيمة والبيوت المشرفة في العالم، وأنَّ رجلاً تولاه، وأعطاه العدة والبقاء، واستشهدوا على صحة دعواهم بشعر زعموا أنَّ قائله هو أحد شعراء الجاهلية[(2)]:

زمزمت الفرس على زمزم وذاك في سالفها الأقدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام بذلك، فقال [(3)]:

وما زلنا نحجُّ البيت قِدماً ونُلْقي بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينًا
فطاف به، وزمزم عند بئر لإسماعيل تَرْوِي الشاربينا

---

(1) التنبيه والأشراف، لأبي الحسن على بن الحسين بن على المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي: (١/٩٥).

(٢) لم أقف على قائله، ينظر: المصدر نفسه.

(٣) مروج الذهب، المسعودي: (١/١٠٣).

ولم يكتف العدنانيون بادّعاء قرابتهم للفرس وللإسرائيليين، بل زعموا أنَّ الأكراد من أقربائهم كذلك، وأنَّهم من نسل ربيعة بن نزار بن بكر بن وائل، أو أنَّهم من نسل ربيعة بن نزار بن معد، أو أنَّهم من نسل مضر بن نزار، أو من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن، وأنَّهم انفردوا في قديم الزمان لوقائع ودماء كانت بينهم وبين غسان، وأنَّهم اعتصموا بالجبال فحادوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الاسم، وصارت لغتهم أعجمية[1].

وهكذا كان من الطبعي أن يجعل القحطانيون أعداء الفرس من ذوي أرحامهم، وهم اليونان فقالوا: إنَّ يونان أخ لقحطان، وإنَّه من ولد عابر بن شالخ، وإنَّه قد خرج من أرض اليمن في جماعة من ولده وأهله إلى بلاد المغرب؛ فأقام هناك، واستعجم لسانه، ووازى من كان هناك في اللغة الأعجمية من الفرنجة، فزالت نسبته، وانقطع نسبه، وصار منسياً في ديار اليمن. وأضاف القحطانيون الأتراك إليهم أيضاً، فزعموا أنَّ معظم أجناس الترك، وهم "التبت" من حمير، وأن التُّبع "شمر يرعش"... هو الذي أمر ببناء "سمرقند"، إلى غير ذلك من أقوال لا ترضى العدنانيين بالطبع، وفي ذلك يقول "دِعْبلِ بن علي الخُزاعي" في قصيدته ألتي يردّ بها على "الكميت"، وفخر فيها بمن سلف من ملوكهم وسير في الأرض، وأنَّ لهم من الفضل ما ليس لمعدّ بن عدنان، فقال في شعره [2]:

---

(١) مروج الذهب: (١/١٧٨)، والمفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي (ت١٤٠٨هـ)، ط٤، دار الساقي، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م: (٢/١٤٩).

(٢) مروج الذهب: (١/٢١٣)، المفصل: (٢/١٥٠).

همو كتبوا الكتاب بباب مَروٍ وباب الصين كانوا الكاتبينا

وهم جمعوا الجموع بسمرقندٍ وهم غرسوا هناك التبتينا

وهكذا كان كلٌّ فريق يرد على مزاعم الفريق الآخر، حين يضيف إليه أمة من الأمم. فلمَّا ادَّعى العدنانيون أنَّهم هم والإسرائيليون والأعاجم من نسب واحد، نرى "دعبل الخزاعي" يردّ عليهم في قصيدة ساخرة يقول فيها[1]:

فإنْ يك آل إسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فاخرينا

فلا تنسَ الخنازير اللواتي مسخن مع القرود الخاسئينا

بأيلة والخليج لهم رسوم وآثار قدمن وما محينا

لقد علمت نزار إن قومي إلى نصر النبوة فاخرينا

ولو نظرنا إلى المعاني التي يُردّدها شعراء الجاهلية، ووقوفهم على بعض المعاني الدينية، وبعض الحوادث التاريخية الدينية سيتأكد عنده ما سوف نشير إليه لاحقًا من أنَّ القوم قد ألفوا أسماء الرب، والنبوة، والحساب، واليوم الآخر، والقضاء القدر، وأسماء الأنبياء كإسحاق وإبراهيم عليهما السلام، ونحوهم بحكم تعايشهم بين أهل الأديان، ويعملون على ترادها بألسنتهم من غير فقه لها، أو إيمان صادق بها.

المطلب الثاني: تصورات العرب الدينية قبل الإسلام

في الحقيقة لا يوجد مصدر يمكن الركون له، والاطمئنان به في توثيق حالة العرب الحياتية، ولاسيَّما الدينية والفكرية قبل

---

(١) مروج الذهب: (٤٤٨/١)، المفصل: (١٥١/٢) .

الإسلام كما هو الحال في القران الكريم. الذي يعد من أصدق المصادر في توثيق حياة العرب الاجتماعية والثقافية والدينية، فالقران الكريم في محاولته تصحيح عدد من الأوضاع والممارسات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي عند نزوله، يعطينا فكرة واضحة عن هذه الأوضاع والممارسات، وعن الدوافع التي أدَّت بهذا المجتمع إلى اتخاذها طريقًا له والتعنت في سبيل المحافظة عليها. وهي دوافع يسهب القران الكريم في عرضها وتفصيلها، ويقدم معلوماتٍ وافيةً ومهمةً عن عصور ما قبل الإسلام في الجزيرة العربية وأخبار دولها وحياتهم الإجتماعية والإقتصادية والفكرية، ومن ذلك إشارة القران الكريم لأصنام المشركين وأسمائها، وأقوام عاد وثمود وطقوسهم الدينية مع إشارته لبعض من أنشطتهم الاقتصادية ورحلاتهم التجارية فضلا عن إشارته لبعض من مساوئهم الإجتماعية كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ونحو ذلك[1].

وقد حكا الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله العزيز جملة أمور تتعلق ببيان الحالة العقدية لمشركي العرب قبل الإسلام، وأعطى توصيفًا دقيقًا وتصويرًا حيًّا لما كانت عليه تصوراتهم عن الإله واليوم الآخر، وهي تصوراتٌ ساذجةٌ بمجملها؛ وهكذا كان المجتمع العربي قبل مجيء الإسلام عبارة عن مجتمع مفكّك الأوصال منحلّ العرى والأواصر ليس فيه من ملامح التدين الصحيح والعادات الإجتماعية والخلقية السليمة شيء يمكن أن يذكر، ولا أصدق على

(١) ينظر كتاب معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، د.أحمد أمين سليم: (ص٤٣).

ذلك من وصف الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب رضي اللّه عنه للنجاشي، إذ قال: (أيُّها الملك كنَّا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منَّا القوي الضعيف، فكنَّا على ذلك، حتى بعث اللَّه إلينا رسولًا منَّا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى اللَّه لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد اللَّه وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام- فعدَّد عليه أمور الإسلام- فصدقّناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين اللَّه، فعبدنا اللَّه وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرّمنا ما حرمّ علينا، وأحللْنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة اللَّه تعالى، وأنْ نستحلَّ ما كنّا نستحلُّ من الخبائث، فلمَّا قهرونا، وظلمونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك)[1] .

ويذهب الشهرستاني إلى أنَّ العرب كانوا أصنافًا شتى من حيث دياناتهم؛ فبعضهم عرف بالمعطِّلة وهؤلاء أصناف: فمنهم من أنكر الخالق، والبعث، والإعادة، وقال بالطبع المحيي والدهر المفني، وقد أخبر القرآن الكريم عن هؤلاء فقال حاكيًا مقالتهم:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (٥/٢٤٩، ح- ٢٢٤٩٨).

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [1] وهو إشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي، وقصر الحياة والموت على تركيبها وتحلّلها؛ فالجامع هو الطبع، والمهلك هو الدهر.

وصنف منهم أقرَّ بالخالق، وابتداء الخلق، ونوع من الإعادة، ولكنّهم أنكروا الرسل وعبدوا الأصنام، وزعموا أنَّهم شفعاؤهم عند اللّه في الآخرة، وحجّوا إليها، ونحروا لها الهدايا، وقربوا القرابين، وتقرّبوا إليها بالمناسك والمشاعر، وحلّلوا وحرّموا، وهم الدهماء من العرب إلاّ شرذمة منهم، وقد أخبر القرآن عن هؤلاء فقال: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ﴾ [2]. [3]

وقد أكد المسعودي تنوع عقائد العرب قائلًا:

كانت العرب في جاهليتها فرقًا، منهم الموحِّد المُقِّرُ بخالقه المصدِّقُ بالبعث والنشور موقنًا بأنَّ اللّه يثيب المطيع، ويعاقب العاصي[4]... وكان من العربِ من أقرَّ بالخالق، وأثبت حدوث العالمً

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٧- ٨.

(٣) الملل والنحل، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني(ت٥٤٨ه)، صحّحه وعلّق عليه: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢: ١٤١٣ه- ١٩٩٢م: (٦٥١/٣- ٦٥٢).

(٤) كحال كثير من أهل الأديان والأحناف وبقايا أهل النبوة وغيرهم.

وأقرَّ بالبعث والإعادة، وأنكر الرسل، وعكف على عبادة الأصنام، وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (١)، وهذا الصنف هم الذين حجّوا إلى الأصنام، وقصدوها، ونحروا لها البدن، ونسكوا لها المناسك، وأحلّوا وحرّموا.

ومنهم من أقرَّ بالخالق، وكذبّ بالرسل والبعث، ومال إلى قول أهل الدهر، وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم وخبر عن كفرهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (٢) فردّ الله عليه بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ (٣)، ومنهم من مالَ إلى اليهودية والنصرانية(٤) .

وهكذا؛ فلقد كانت فوضى الأفكار السِّمة البارزة لتديّن عربِ الجاهلية، وهذه الفوضى هي التي ولدت كلَّ الإنحرافات الفكرية والسلوكية عندهم، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في بيان معتقدات العرب: " وقد كان دين العرب في الجاهلية خليطًا من عبادة الأصنام، ومن الصابئية عبادة الكواكب، وعبادة الشياطين ومجوسية الفرس، وأشياء من اليهودية والنصرانية؛ فإنَّ العرب لجهلهم حينئذ كانوا يتلقون من الأمم المجاورة لهم، والتي يرحلون إليها عقائد شتى متقاربًا بعضُها ومتباعدًا بعضٌ، فيأخذونه بدون تأمّل، ولا

---

(١) سورة الزمر:الآية ٣.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٢٠.

(٤) مروج الذهب: (١/٢١٩).

تمحيص؛ لفقد العلم فيهم، فإنَّ العلم الصحيح هو الذائد عن العقول من أنْ تعشش فيها الأوهام والمعتقدات الباطلة؛ فالعرب كان أصل دينهم في الجاهلية عبادة الأصنام، وسرت إليهم معها عقائد من اعتقاد سلطة الجن والشياطين ونحو ذلك)[1] .

وقبل أنْ أوجز مجمل التصورات الدينية للعرب قبل الإسلام، وكما وثَّقها القران الكريم للتدليل على أنَّ مشركي الجاهلية من العرب بخاصَّة ممن نزل عليهم القران كانوا نحلًا ومللًا شتى ومتنوعة لا يربطهم رابط إلاَّ الإنحراف عن التصور الصحيح، أودّ الإشارة إلى أنّ بعض مشركي الجاهلية على تنوع معبوداتهم يزعمون بأنَّ معبوداتهم هي الربُّ حقيقة، أو هو كبيرُ الآلهة، ومنهم من يراه إلهًا من الإلهة المعبودة.

أوّلاً: نسبة الولد لله

لقد ذكر القران الكريم قبائح كثيرة لمشركي الجاهلية، ومن أبرز مقالاتهم الفاجرة زعمهم بان لله أولادا بنين وبنات، قال عز وجل:

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ

---

(١) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ هـ: (٤٠/٧).

وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾ ﴾[1] .

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾[2]، وقوله عز وجل ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ ﴾[3]، وقال عز وجل ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾ ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ ﴾[5] .

وتجد التصريح بعقيدتهم في أنَّ الملائكة بناتُ الله في قوله ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا

---

(١) سورة مريم : الآيات ٨٨ - ٩٣.

(٢) سورة البقرة : الآية ١١٦.

(٣) سورة يونس: الآية ٦٨.

(٤)سورة الكهف : الآية ٤.

(٥)سورة الأنعام: الآيات ١٠٠ -١٠٢.

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ
إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

وقد نبّه القران الكريم على جملة أدلّة توضح فساد هذا الزعم والإدّعاء، وذلك من خلال الألفاظ المستخدمة في السياق القرآني، والتي توضحُ أنَّ الأمر جللٌ، وأنَّ المقالة قد وصلت إلى الغاية في القبح، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا
إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا
﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾[2].

ثم وجه لمن يعتقد ذلك، ويقول به إنذارًا شديد اللهجة فقال:
﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾[3]. وحاثًّا
على ضرورة تنزيه الله تعالى عن هذه القولة المنكرة، فقال: ﴿ وَقَالُوا۟
ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾
بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾[4]

(١)سورة الأنبياء: الآيات ٢٦- ٢٩ .

(٢) سورة مريم: الآيات ٨٨- ٩٣.

(٣) سورة الكهف: الآيتان ٤- ٥.

(٤) سورة البقرة: الآيتان ١١٦- ١١٧.

ثم أرشد إلى ضرورة تحكيم العقل الذي يرفض ببداهته مثل هذه الأقاويل الكاذبة والمغلوطة، فقال: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾[1]..

يشير الزمخشري إلى عدة وجوه في بيان وجوه دلالة هذه الآيات على دحض هذه الفرية، فيقول: **أحدهما**: أنَّ مبدعَ السموات والأرض- وهي أجسامٌ عظيمة- لا يستقيم أنْ يوصف بالولادة؛ لأنَّ الولادة من صفات الأجسام، ومخترع الأجسام لا يكون جسمًا حتى يكون والدًا.

والثاني: أنَّ الولادة لا تكون إلاَّ بين زوجين من جنس واحد، وهو متعالٍ عن مجانس، فلم يصحّ أنْ تكون له صاحبةٌ؛ فلم تصحّ الولادة.

والثالث: أنّه ما من شيء إلاَّ هو خالقه والعالِمُ به، ومن كانت هذه صفته، كان غنيًّا عن كلِّ شيء، والولد إنَّما يطلبه المحتاج)[2].

ومن ردود القرآن الكريم على هذه الدعوى ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ

(١) سورة الأنعام: الآية ١٠١.

(٢) الكشاف، للزمخشري: (١١٥/٢).

﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [(١)].

ثانيا: إنكار البعث

دأب كثيرٌ من مشركي العرب على الإعتقاد بعدم وجود اليوم الآخر، أو وجود بعث وحياة ونشور، وهذا الأمر كان عقيدة الكثرة الكاثرة منهم، (ومعنى ذلك أنَّ الأصلَ هو نكرانُ البعث، وأنَّ أغلب الجاهليين كان على هذا الإعتقاد، وقد دُهِشوا من قول الرسول - صلّى اللّه عليه وسلم- بالبعث والحساب)[(٢)]، لهذا عُدَّ من وُجِد على غير ذلك - ممن تأثّر بالأفكار التوحيدية التي تسرّبت إلى شبه جزيرة العرب مع ما أحاط بها من أساطير وخرافات- شاذًّا عن الإتجاه العام الذي عُرِفَ به المشركون، والذين وثّقت أقوالُهم من خلال القرآن الكريم، ذلك السفر الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

وممّا حكاه القران الكريم عنهم قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [(٣)]، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

---

(١) سورة الزخرف: الآيات ١٥- ١٩.

(٢) تاريخ العرب القديم، توفيق برو، دار الفكر، إعادة الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م: (١/٣٠٥).

(٣) سورة الأنعام: الآية ٢٩ .

يَعۡلَمُونَ ﴾[١]، و ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا
﴾[٢]. ﴿ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ
فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ ﴾[٣]، و ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾[٤]، و
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ﴾[٥]، و
﴿ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ
هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾[٦]، و ﴿ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ
أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾[٧]، و ﴿ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ
قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ ﴾[٨]، و ﴿ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ
تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا

---

(١) سورة النحل: الآية ٣٨ .

(٢)سورة الاسراء: الآية ٤٩ .

(٣)سورة الاسراء: الآيات ٥٠- ٥١ .

(٤)سورة التغابن: الآية ٧ .

(٥)سورة الحج: الآية ٥ .

(٦)سورة هود: الآية ٧ .

(٧)سورة المؤمنون: الآيات ٨١- ٨٢ .

(٨)سورة الرعد: الآية ٥ .

ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾[1]، و ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[2]، ﴿ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾[3]، ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾[4] ... ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[5] .

غير أنَّ الإخباريين رووا لنا أنَّ فريقًا من الجاهليين كانوا يؤمنون بالبعث والحشر بالأجساد، مع ما نُسج حولها من أوهام وخيالات خاطئة، ويستشهدون على ذلك بالتقليد الجاهلي الذي يقال له "البلية"، ويقصدون بذلك: عقل ناقة، أو جمل عند قبر ميت حتى تبلى؛ ليحشر وهو راكبٌ عليها، فلا تُعلف، ولا تسقى حتى تموت

(١)سورة المؤمنون: الآيات ٣٥- ٣٧ .

(٢)سورة النمل: الآيات ٦٧ – ٧١ .

(٣)سورة النمل: الآية ٧٢ .

(٤)سورة السجدة: الآية ١٠ .

(٥)سورة الدخان: الآيات ٣٤ – ٣٥ .

جوعًا وعطشًا[1]. ويروى أنَّ من تقاليد الجاهلية أنْ يعكسوا رأس الناقة، أو الجمل إلى مؤخره، ويأخذون ولية - أي: سرجا- فيشدون وسطه، ويقلدون عنقه، ويتركونه كذلك حتى يموت عند القبر. إذ كان بعضهم يوصي بأنْ يدفنوا معه ناقته كي لا يسير إلى المحشر راجلًا، فيفعلون ذلك[2]، كما قال عمرو بن زيد الكلبي يوصي ابنه[3]:

أبُني، زودني إذا فارقتني في القبر راحلة برحل فاتر
للبعث أركبها إذا قيل: اظعنوا مستوسقين معًا لحشر الحاشر

أو كقول جريبة بن الأشيم الفقعسي يوصي ابنه[4]:

يا سعد إما أهلكنَّ فإنني أوصيك - إن أخا الوصاة الأقرب-
لا تتركن أباك يعثر راجلا في الحشر يصرع لليدين وينكب
واحمل أباك على بعير صالح وتق الخطيئة، إن ذلك أصوب
ولعل لي مما جمعت مطية في الحشر أركبها إذا قيل: اركبوا

---

(١) المفصل: (٢٤٨/٥).

(٢) بلوغ الأرب، الآلوسي: (٣٠٩/٢). تاريخ العرب القديم: (٣٠٦/١).

(٣) المحبر، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، لأبي جعفر البغدادي (ت ٢٤٥هـ)، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت: (٣٢٤/١).

(٤) المحبر، لابن حبيب: (٣٢٣/١)، البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي (ت٣٥٥هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد: (١٤٤/٢)، الحور العين، نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (ت ٥٧٣هـ)، المحقق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٩٤٨م: (١٣٥/١).

وهنا ينبغي التأكيد على أمر مهمٍّ، وهو أنَّه من الضروري على من يريد أنْ يُثبت حكمًا لمشركي الجاهلية كإقرارهم بتوحيد الربوبية، أو بالبعث، أو الحساب، أو أنّهم كانوا يحجّون، أو يصلون، أو غير ذلك، أنْ يلحظ مجيء هذه التصرفات وفق التصور الإسلامي لها، والحكم عليها تصويبًا وتخطئة، تسمية وحكمًا، يكون بمدى قربها وبعدها عن التصور الإسلامي؛ لذا فإنَّ أيَّ توصيف لم يراع هذه القضية يجب ألاَّ تُسبغ المشروعية عليه، ولو كانت من خلال تسميته بالإسم الإسلامي؛ لأنَّه سيورث بلبلة في الأفكار، ونزوعًا نحو التلبس بأمور تخالف الشرع بادّعاء الموافقة الإسمية، وعليه فإنَّ مشركي الجاهلية لم يؤمنوا بالبعث بحسب التصور الإسلامي، وما دام الأمر كذلك يجب علينا عدم وصفهم بأنَّهم مقرون بالبعث فضلاً عن إيمانهم به!

يضاف إلى ذلك أنَّ الإيمان بالبعث - كما أسلفت- كانت خلاف الإعتقاد السائد عند الجمهرة من مشركي الجاهلية الذين كانوا- وكما هو واضحٌ من نصوص القران والمرويات التاريخية- يؤمنون إيمانًا جازمًا بعدم البعث، وأنَّ حركة الأفلاك وتعاقب الليل والنهار هما سببا الحياة والموت.

قال قائلهم[1]:

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تمسي
وطلوعها حمراء صافية وغروبها صفراء كالورس

(١) قائله أسقف نجران وهو قس بن ساعدة الإيادي، كما في لسان العرب: (٩/٦).

اليـوم أعلـم مـا يجـيء بـه ومضى بفصل قضائه أمس

وهكذا كان مشركو الجاهلية يرون الزمن حركة باتجاه واحد، حياة فموت، وقد درجت هذه الفكرة على ألسنتهم، وآمنوا بها، وسخروا ممن يقول بخلافها[1].

قال القائل[2]:

حيـاة ثـم مـوت ثـم بعـث حديث خرافة يا أم عمـرو

أو كقولهم[3]:

---

(١) ينظر: كتاب الحضارة، د.حسين مؤنس، سلسلة عالم المعرفة، العدد، ١٩٧٨م: (ص١٣١).

(٢) نسبه ابن قتيبة إلى أبي نؤاس، وكذا فعل الجرجاني في وساطته بين المتنبي وخصومه، بينما رأيت الراغب الأصفهاني ينسبه إلى ديك الجن، ورأيت الزمخشري في ربيع أبراره ينسبه إلى ابن الزبعرى. ينظر: الشعر والشعراء، لابن قتيبة: (٧٩٦/٢)، الوساطة بين المتنبي وخصومه، أبو الحسن علي بن عبد العزير القاضي الجرجاني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه: (٦٤/١)، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت٥٠٢هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ: (٦٣٤/٢)، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، الزمخشري (ت٥٨٣ هـ)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ: (٣٥٠/٤).

(٣) ذكره ابن قتيبة في " الشعر والشعراء" (٥٠٢/١) ، وأبو تمام في " الحماسة" مع شرح التبريزي، والمبرد في " الكامل" (١٥٦/٢) ، وابن عبد ربه في " العقد الفريد" (١٨٨/٣)، والعباسي في "معاهد التنصيص" (٧٣/١) ، والبغدادي في " خزانة الأدب" (١٦٠/٢)، ونسبوها إلى الصلتان العبدي.

أشاب الصغير وأفنى الكبير كر الغداة ومر العشي

أو كقول عدي بن زيد العبادي وهو يتكلم بلسان شجرة(١):

من رآنا فليوطن نفسه بأنه موف على قرب زوال

رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذلك الدهر حالا بعد حال

أو كقول شداد بن الأسود(٢):

أيوعدني ابن كبشة أن سنحيا

وكيف حياة أصداء وهام

أيعجز أن يرد الموت عني

وينشرني إذا بليت عظامي

وقد نبّه اللّه سبحانه وتعالى من خلال أدلّته العقلية(٣) التي ضمَّنها كتابه الخالد ومعجزة رسوله الباقية على أمور مهمة تبين

---

(١) نقل بألفاظ مختلفة. ينظر: نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب: (١/٢٨١)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م: (١/٢٢٣)

(٢) ينظر: نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، ابن سعيد الأندلسي، المحقق: الدكتور نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان– الأردن: (١/٧٧)، تاريخ العرب القديم: (١/٣٠٦)، قصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار- محمد عبد المنعم خفاجى، مكتبة الكليات الأزهرية: (١/٥١٢).

(٣) لا يخفى على ذوي العقول أنَّ المراد من ذلك القران الكريم بما تضمَّنه من دلائل عقلية، يقول الشيخ الشعراني رحمه الله في كتابه"القواعد

=

زيف ادعاءات منكري البعث، فقال المولى جل وعلا: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

ثالثا: القول بالتناسخ

عرّف الجرجاني التناسخ بقوله: (هو عبارة عن تعلّق الروح بالبدن بعد المفارقة من بدن آخر، من غير تخلل زمان بين التعلقين للتعشق الذاتي بين الروح والجسد)[2].

=

الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية" ما نصُّه: (فإنَّ القرانَ كلّه دليل قطعي سمعي عقلي): (ص٩٢).

(١) سورة يس: الآيات ٧٧- ٨٣.

(٢) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م: (ص٧٢). وينظر: تاريخ الفكر الديني الجاهلي" محمد إبراهيم الفيومي(ت١٤٢٧هـ)، دار الفكر العربي، ط٤، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤: (٢٤١- ٢٤٢).

يقول الشهرستاني: (وما من ملّة من الملل إلاّ وللتناسخ فيها قدمٌ راسخٌ. وإنَّما تختلف طرقهم في تقرير ذلك. فأمَّا تناسخية الهند؛ فأشدّ اعتقادًا لذلك، لما عاينوا من طير يظهر في وقت معلوم، فيقع على شجرة معلومة، فيبيض ويفرخ، ثم إذا تمّ نوعه بفراخه حكّ بمنقاره ومخالبه، فتبرق منه نار تلتهب، فيحترق الطير، ويسيل منه دهن يجتمع في أصل الشجرة في مغارة، ثم إذا حال الحول وحان وقت ظهوره انخلق من هذا الدهن مثله طير؛ فيطير، ويقع على الشجرة وهو أبدا كذلك. قالوا: فما مثل الدنيا وأهلها في الأدوار والأكوار إلَّا كذلك)[1].

وقد تكلّم البيروني في كتابه "تحقيق ما للهند من مقولة" عن التناسخ قائلاً:

(كما أنَّ الشهادة بكلمة الإخلاص شعارُ إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والإسبات علامة اليهودية، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية؛ فمن لم ينتحله لم يكن منها، ولم يُعدّ من جملتها. فإنَّهم قالوا إنَّ النفس إذا لم تكن عاقلة لم تحط بالمطلوب إحاطة كلية دفعة بلا زمان، واحتاجت إلى تتبع الجزئيات، واستقراء الممكنات. وهي وإنْ كانت متناهية؛ فلعددها المتناهي كثرة، والإتيان على الكثرة مضطرٌ إلى مدة ذات فسحة. ولهذا لا يحصل العلم للنفس إلَّا بمشاهدة الأشخاص والأنواع، وما يتناوبها من الأفعال والأحوال حتى يحصل لها في كلِّ واحد تجربة، وتستفيد بها جديد معرفة. ولكنَّ الأفعال مختلفة بسبب القوى، وليس العالم بمعطل عن

---

(١) الملل والنحل، للشهرستاني: (٢/٢٧٣).

التدبير، وإنَّما هو مزموم، وإلى غرض فيه مندوب. فالأرواح الباقية تتردد لذلك في الأبدان البالية بحسب افتتان الأفعال إلى الخير والشر، ليكون الترددُ في الثواب منبِّهًا على الخير؛ فتحرص على الإستكثار منه، وفي العقاب على الشرِّ والمكروه؛ فتبالغ في التباعد عنه، ويصير التردد من الأرذل إلى الأفضل دون عكسه)[1].

ثم يردف البيروني محاورة بين "باسديو" و " آرجن"؛ فيقول:

(وحقيق علينا أنْ نورد من كتبهم شيئًا من صريح كلامهم في هذا الباب. قال باسديو، لأرجن يحرّضه على القتال، وهما بين الصفين: إنْ كنتَ بالقضاء السابق مؤمنًا؛ فاعلم أنَّهم ليسوا ولا نحن معًا بموتى، ولا ذاهبين ذهابًا لا رجوع معه، فإنَّ الأرواح غير مائتة، ولا متغيرة، وإنَّما تتردد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة، ثم الشيخوخة التي عقباها موت البدن ثم العود، وقال له: كيف يذكر الموت والقتل من عرف أنَّ النفس أبديةُ الوجود، لا عن ولادة، ولا إلى تلف وعدم، بلْ هي ثابتةٌ قائمةٌ، لا سيف يقطعها، ولا نار تحرقها، ولا ماء يغصّها، ولا ريح تيّبسها، لكنها تنتقل عن بدنها إذا عتق نحو آخر ليس كذلك، كما يستبدل البدن اللباس إذا خَلِق، فما غمّك لنفس لا تبيد، ولو كانت بائدة؛ فأحرى أنْ لا تغتمّ لمفقود لا يوجد، ولا يعود؛ فإنْ كنت تلمح البدن

---

(١) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي (ت٤٤٠هـ)، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤٠٣ هـ: (٣٩/١).

دونها، وتجزع لفساده؛ فكلُّ مولود ميّت، وكلُّ ميّت عائد، وليس لك من كلا الأمرين شيء.)[1].

والعرب كغيرهم من الأمم تأثّروا بهذه الفكرة لانتشار المجوسية في بعض قبائلها، وهم - تحديدًا - بنو تميم[2]، لكن يمكن القول بأنَّها أقلُّ عندهم من غيرهم؛ بل يمكن القول بأنَّ: (أخفّ الجاهليات هي جاهلية العرب قبل الإسلام، وذلك أنَّه لم تكن قائمة على تلبيسات منطقية، وزخارف فلسفية، ولم تكن قد توغلت فيهم عقائد التناسخ والحلول، فقد كانت عقائدهم وهمًا وخرافات، وعادات منها الطيّب والخبيث، قلّدوا فيها الآباء دون أنْ يعملوا فيها العقول، وألفوها حتى أصبحت دينًا لازمًا لهم)[3].

أو قد قامت عقيدة التناسخ عند القائلين بها على دعائم أربع:

١- أنَّ الدنيا دار الجزاء؛ ثوابًا كان، أو عقابًا.

٢- أنَّ رجوع الروح إلى الدنيا يتكرّر مرارًا؛ بولادة في جسدٍ جديدٍ، أو بغير ولادة.

---

(١) المصدر نفسه: (٤٠/١).

(٢) المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: ثروت عكاشة، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م: (٦٢١/١).

(٣) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، قام بنشره عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط١، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م: (١٠٥/١).

٣- أنَّ هذا التكرار لا نهاية له عند أصحاب هذا المعتقد الفاسد، إلّا بالترقّي التدريجي في درجات التناسخ، فتُصفّى الروح الطيّبة شيئًا فشيئًا، حتى تصلَ إلى درجة معيَّنة، هي بالنسبة لها نهاية الكمال.

٤- أنَّ الأرواحَ يتميَّز طيّبها من خبيثها في درجات التناسخ[١].

يقول الشهرستاني: (ومن العرب من يعتقد التناسخ، فيقول: إذا مات الإنسان، أو قتل اجتمع دم الدماغ وأجزاء بنيته، فانتصب طيرًا هامة؛ فيرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة، وعن هذا أنكر عليهم الرسول عليه السلام فقال: "لا هامة ولا عدوى، ولا صفر"[٢])[٣].

ويقول الألوسي عند قوله تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: (وجوز أن يريدوا بالحياة على سبيل المجاز إعادة الروح لبدن آخر بطريق التناسخ وهو اعتقاد كثير من عبدة الأصنام ولا يخفى بعد ذلك)[٤].

وقد بيَّن النوبختي فكرة التناسخ عند القائلين بها، فقال: (وهم أهل القول بالدور في هذه الدار وإبطال القيامة والبعث والحساب، وزعموا أنَّ لا دار إلا الدنيا، وأنَّ القيامة إنَّما هي خروج

---

(١) أثر الملل والنحل القديمة في بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام، د.عبد القادر بن محمد عطا صوفي، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة السادسة والثلاثون، العدد الخامس والعشرون بعد المائة ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م: (١/ ٧١).

(٢) مسند الإمام احمد: (١/ ١٧٤)، قال الأرناؤوط: اسناده جيد.

(٣) الملل والنحل: (٣/ ٨١).

(٤) تفسير روح المعاني: (١٣/ ١٥١).

الـروح مـن بـدن ودخولـه في بـدن آخـر غـيره، إنْ خـيرًا فخـيرٌ، وإن شـرًّا فشرٌّ، وأنّهم مسرورون في هذه الأبدان أو معذبون فيها، والأبدان هـي الجنات وهي النار، وأنَّهم منقولون في الأجسام الحسنة الإنسية المنعَّمة في حياتهم ومعـذبون في الأجسـام الرديـة المشـوَّهة مـن كـلاب وقـردة وخنازير وحيّات وعقارب وخنـافس وجعـلان محولـون مـن بـدن إلى بـدن معـذبون فيهـا، هـكـذا أبـد الأبـد؛ فهـي جنـتهم ونـارهم لا قيامـة ولا بعث، ولا جنة ولا نار غير هذا، على قدر أعمالهم وذنوبهم)[1].

رابعا: عبادة الملائكة والشياطين.

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة، ويزعمون أنَّها بنات الله؛ فكانوا يعبدونها؛ لتشفع لهم إلى الله، وهم الذين أخبر الله عز وجل عنهم بقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾[3] وكانوا يعتقدون بأن الملائكة بنات الله من أمهات سروات الجن كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ ﴾[4]، وقال ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ

---

(١) فرق الشيعة، الحسن بن موسى النوبختي، دار الأضواء، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، بيروت: (ص٥٧- ٥٨).

(٢) سورة النحل: الآية ٥٧ .

(٣)سورة النجم: الآية ١٩ – ٢١ .

(٤) سورة الصافات: الآية ١٥٨ .

شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[1]. ومن أجل ذلك جعل كثير من قبائل العرب شيئًا من عبادتهم للملائكة وللجن، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[2].

وكان بعض العرب مجوسًا[3] عبدوا الشيطان، وزعموا أنَّه إله الشر، وأنَّ اللّه إله الخير، وجعلوا الملائكة جند اللّه والجن جند الشيطان، وزعموا أنَّ اللّه خلق الشيطان من نفسه ثم فوض إليه تدبير الشر فصار إله الشر، وهم قد انتزعوا ذلك من الديانة المزدكية القائلة بإلهين، إله الخير وهو (يزدان) وإله الشر وهو (أهرمن)، وهو الشيطان.

يقول ابن قتيبة: (كانت النّصرانية في: «ربيعة»، و «غسّان»، وبعض «قضاعة» وكانت اليهودية في: «حمير»، و«بنى كنانة»، و«بنى الحارث بن كعب»، و«كندة». وكانت المجوسية في: «تميم». منهم:

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٤٩ - ١٥٢

(٢) سورة سبأ: الآية ٤٠ - ٤١.

(٣) المجوس: هم الذين أثبتوا أصلين للعالم هما: (إله النور) خالق الخير واسمه: يزدان. و (إله الظلمة) خالق الشّر، واسمه: أهرمن. والمجوس يعظمون النيران والأنوار. وانقسموا إلى مذاهب كثيرة منها: الثنوية، والزرادشتية، والمركونية، والمزدكية، والتناسخية. الفصل، لابن حزم: (٨٦/١)، الملل والنحل، للشهرستاني: (٢٣٠/١).

زرارة بن عدس التميمي، وابنه: حاجب بن زرارة- وكان تزوّج ابنته ثم ندم. ومنهم: الأقرع بن حابس- وكان مجوسيّا، وأبو سود- جدّ: وكيع ابن حسان- كان مجوسيًّا، وكانت الزندقة في «قريش»، أخذوها من «الحيرة»)[1].

يقول الإسفراييني: (أَنَّ الْمَجُوس قَالُوا تفكر يَزْدَان فِي نَفسه أَنَّه يجوز أَن يظْهر لَهُ مُنَازع ينازعه فِي مَمْلَكَته؛ فاهتمَّ لذَلِك؛ فَحدثت فِي ذَاته عفونة بِسَبَب هَذِه الفكرة؛ فخلق مِنْهَا الشَّيْطَان)[2].

ويقول الشهرستاني بأنَّ المجوس ثنوية: (أثبتوا أصلين: يزدان، وأهرمن، وقالوا: يزدان أزلي قديم، وأهرمن محدث مخلوق، وقالوا: أنَّ سبب خلق أهرمن أنّ يزدان فكّر في نفسه: أنّه لو كان لي منازع كيف يكون؟ وهذه الفكرة كانت رديئة غير مناسبة لطبيعة النور، فحدث الظلام من هذه الفكرة، وسُميّ: أهرمن، وكان مطبوعًا على الشرِّ، والفتنة، والفساد، والفسق، والضرر، والإضرار، فخرج على النور، وخالفه طبيعة وفعلًا، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة. ثم أنَّ الملائكة توسّطوا؛ فتصالحوا على أنَّ يكون العالم السفلي خالصًا لأهرمن سبعة آلاف سنة. ثم يخلي العالم

---

(١) المعارف، لابن قتيبة : (٦٢١/١).

(٢) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، طاهر بن محمد الإسفراييني، أبو المظفر (ت ٤٧١هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، ط١، عالم الكتب – لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م: (١١٣/١).

ويسلمه إلى النور، والذين كانوا في الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم)[1].

خامسا: عبادة النيران والأفلاك

ومن العرب من عبد النَّار، وقد سرى ذلك إليهم من الفرس المجوس، وتعد النَّار معبودًا قديمًا، يقول بشار بن برد في ذلك[2]:

الأرض سافلة سوداء مظلمة   والنّار معبودة مذ كانت النّار

ومن العرب من عبد الشمس، وهم بعض عرب اليمن، وقد أخبر عنهم التنزيل: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾[3].

وبهذا العرض الموجز نستطيع رسم صورة واضحة المعالم لمجمل عقائد العرب، إطارها العام تنوع دياناتهم مع جهل متفش، وقلّة وعي وفهم، ترتسم فيها ومن خلالها التصورات الساذجة الخاطئة عن الآله، والبعث، واليوم الآخر، مع محتوىً يغلب عليه الطابع الأسطوري والمنشأ المادي في تفسير الظواهر والحوادث الحياتية المتعددة؛ لينسجم ذلك الإطار وهذا المحتوى مع التصور العام عن جاهليتهم وجهلهم الضارب بأطنابه في جزيرة العرب كلها. يقول تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا

---

(١) الملل والنحل، للشهرستاني: (٢/٣٩).

(٢) ديوانه: (٤/٧٨).

(٣) سورة النمل: الآيات ٢٣- ٢٤.

﴿فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[1].

يقول أ.د محمد إبراهيم الفيومي: " وكلُّ ما لدينا من فكرٍ جاهليٍ هي لمحاتٌ من خواطر وسوانح فكرية لا تتعدى أنْ تكون تعبيرًا عن تجارب، أو تعبيرًا عن بدهيات، وليس عن فكر تأملي منطقي يقوم على التركيب والتحليل واستقراء النتائج؛ فتلك هي أخصُّ خصائص الفكر العربي الجاهلي...؛ بلْ أهمُّ خصائصِه، وهو: أنَّ العربي ماديٌّ بطبعه في عبادته حين عبد الوثنية، ماديٌّ في فكره من حيث معاملته مع الآخرين... ثم يستطرد د.الفيومي مدلِّلاً على فكرته هذه بقصة" أبرهة "- حين خرج من الحبشة إلى اليمن، ومن اليمن إلى الكعبة، وكانت وجهة نظر " أبرهة" من ذلك الغزو الإعتداء على الكعبة؛ فحين خرج من الحبشة إلى اليمن وجد النّاس يقصدون الكعبة؛ فتساءل عن الكعبة وتأريخها ومدى حاجة الناس إليها؛ فأعلمه القوم بأنَّه بيتٌ مركزي للعبادة العربية؛ ففكّر في أنْ يقيم بيتًا على مشارف اليمن وسمَّاه "القليس" باللغة الحميرية، وتعني: الكنيسة، ولمَّا عرف الناس عنه مقصده أعرضوا عنه، فتسآءل عن السبب! فأعلمه القوم بأنَّهم يحجون إلى الكعبة، ولا حيلة له أمام ذلك إلَّا إذا هُدِمت الكعبة، وجهَّز حملته المشهودة، وسار بها حتى شارف مكة، ثُمّ وقف عند مشارفها ريثما يستوضح الأمر، وتساءل عن عظيمها، فقيل له: إنَّه "عبد المطلب" كبيرُ القرشيين وسادنُ ذلك البيت، فأرسل

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥١ .

إليـه رسـوله يبحـث عنـه، ويحضـره؛ ليتفـاوض مـع أبرهـة، فلمَّـا لقيـه سـفير أبرهـة، قـال لـه: إنَّ قائـد الجنـد يطلبـك للتفـاوض، فلبَّـى عبـد المطلب تلك الدعوة، وذهـب لِتـوِّه؛ ليقابل أبرهـة، فلمَّـا مَثُل بـين يديـه، وكما تقول الرواية: أنَّ أبرهة جاء بمترجم له، وكانت اللغة المستعملة للتفاوض هي اللغة الحبشية القديمة، وبعد نقاش حول سرِّ الحملة، وماذا يطلبون منه. قال له أبرهة: إنّي أقصد البيت فقط، ردَّ عليه عبد المطلب، ذلك المفاوض العربي قائلاً: (إذا كنتَ تريد البيت؛ فهو أمامك، وإذا كنت تريد الإبل؛ فالحرب دونك). وتعجّب أبرهة، وقال: يبيعون البيت بالإبل. وقال عبد المطلب قولته المشهورة: "أمَّا الإبل؛ فهي لي، وأمَّا البيت؛ فله ربٌّ يحميه".

ثم يخلص د.الفيومي من هذه القصة بالنتائج التي تعطينا خصائص الإنسان العربي، فيقول: واضح أنَّ المفاوضة كانت قصيرة رغم أنَّ مهمة أبرهة كانت خطيرة الشأن، إنَّ عبد المطلب فرق بين قضيتين: القضية الأولى، القضية الأولى تتعلق بالنياق، والقضية الثانية، قضية البيت العتيق الذي يحمل تاريخًا طويلاً في تاريخ المقدسات الطويل، وأنَّه حين فهم كما أعلمه أبرهة أنَّ وجهته هدم الكعبة فقط لم يتحرك عبد المطلب؛ ليذود عن مقدساته التاريخية وعن حرمتها الدينية.

أما لو تعرّض أبرهة للأبل والنياق؛ فالحرب دونه، معنى ذلك، أنَّ عبد المطلب فضَّل الدفاع عن القضايا المادية فقط، وهو إذْ يقرّر الدفاع كان يرى أنَّه عدلُ نظيره في القوة، بينما فضَّل الإنسحاب أمام هدم البيت، فلو أنَّ عبد المطلب كان يرى في البيت المقدس المعنى الديني الذي يغمره، هو الأفضل؛ لفضَّل الدفاع عنه أوّلًا، ولكنَّه

فضَّل الدفاع عن الجانب المادي، وقرّر الإنسحاب أمام حرمات الوطن ومقدساته الدينية"[1].

من كلِّ ما تقدّم نخلص إلى أنَّ مشركي الجاهلية لم يكونوا موَّحدين في الفكر كما هو حالهم في الأبدان؛ بل كانوا متشرذمين وممزقين أبدانًا وأفكارًا وسلوكيات، ولم يكن عند الجميع أيُّ تصورات دقيقة عن أيِّ شيء ديني، وليس عندهم سوى ما ألفوه من أسماء الرسل والأنبياء وأمكنتهم ودياناتهم، وسيأتي مزيد تفصيل عن ذلك لاحقًا.

(١) المدرسة الفلسفية في الإسلام بين المشائية والإشراقية، أ.د محمد إبراهيم الفيومي، مطبوع ضمن أبحاث ندوة (نحو فلسفة إسلامية معاصرة) المنعقدة بتأريخ ٣١/٧- ٢/٨/ ١٩٨٩م، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٤ه- ١٩٩٤م: (ص٣٢- ٣٣).

المبحث الثالث
مناقشة الشبهة ودحضها

إنَّ ما تقدّم في تفسير المراد من توحيد الربوبية لم يكن متوافرًا لدى المشركين، وليس في مكنتنا إسباغ التوحيد - في الربوبية - على الموصوفين بالشرك والمتلبسين بعبادة الأنداد لما في ذلك من الجمع بين الأضداد، وهو أمرٌ تأباه العقول الحصيفة، فضلاً عن أنّ مثل هكذا إدّعاء خطير يسبغ التوحيد على المشرك، وهو نظيرُ من يُسبِغُ الإشراك على المسلم، فكلا طريق قصد الأمور ذميم. وكم هو مؤلم أنْ يتم التأسيس لمقولات مُجْحِفةٍ بحقّ أناسٍ خدموا الدين الإسلامي، وجعلهم أقلَّ منزلة من مشركي الجاهلية؛ فالشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى، وهو من كبار علماء المملكة العربية السعودية وعلماء المدرسة السلفية يؤكد في تقريب التدمرية ما سبق التأسيس له من قبل أعلام هذه المدرسة قديمًا وحديثًا؛ فبعد أنْ سرد كلامه في الحديث عن توحيد الإلوهية، يقول: (فتبيّن بذلك أنَّ المشركين أعلمُ وأفقهُ بمعنى لا اله إلا الله من هؤلاء المتكلمين، وأنَّ غاية ما يقرره هؤلاء المتكلمون من التوحيد، توحيد الربوبية الذي لا يخلّص الإنسان من الشرك)[1]، ثم يبني على هذا أنَّ المتكلمين قد أخلّوا بتوحيد الإلوهية، ولم يولوه أهمية كما فعلوا مع توحيد الربوبية.

أقول: أمَّا إخلال المتكلمين بتوحيد الإلوهية، فليس صحيحًا؛ لأنَّ التوحيد عند المتكلمين ينفي الكموم الخمسة، ومنها نفي الكمّ

---

(١) تقريب التدمرية، الشيخ محمد بن صالح العثيمين: (ص١١٨).

المنفصل في الأفعال؛ فليس لغير الله ندٌّ في جلب المنافع، أو دفع المضار، وليس له ندٌّ في الإحياء، أو الإماتة، ونحوها، وإذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك؛ فالعبادُ مطالبون بتحقيق الوحدانية سواء في توحيد الذات، أو الصفات، أو الأفعال، وغاية ما في الأمر أنَّ بعض أقسام هذا التوحيد درج آخرون على تسميته باسم آخر ضمن تقسيم مغاير آخر، هو توحيد الإلوهية ضمن التقسيم الثلاثي المعروف عند أصحاب الإتجاه السلفي في دراسة العقيدة الإسلامية، ولا مشاحة في الإصطلاح، يقول الفوزان: (توحيد الربوبية: وهو توحيده بأفعاله- سبحانه وتعالى- ، فلا أحد يخلق مع اللّه، ولا أحد يرزق مع اللّه، ولا أحد يحيي ويميت مع اللّه- سبحانه وتعالى-)[1].

بيد أنَّ أصحاب الإتجاه الكلامي يقّرون بهذا التوحيد، وإنْ رأوه في قبال توحيد الإلوهية لا توحيد الربوبية على فرضية التسليم، والقبول بالتقسيم الثلاثي للتوحيد، ودونك أيَّها القارئ الكريم كتب المتكلمين؛ فستجدها طافحة بذكر أنواع الدلائل العقلية والنقلية في هذا الباب، وبما يخرجنا هنا عن المقصد الرئيس من البحث.

وأمَّا إكثار المتكلمين من الحديث عن توحيد الربوبية؛ فلأنَّها مشكلةُ عصرهم وبخاصّة بعد توسع رقعة الدولة الإسلامية، وترجمة الفلسفات الشرقية واليونانية بأنواعها، فكانت مشكلة الربِّ وإنكْار وجوده، أو إنكار صفاته، أو إسقاط مفهومه على مصاديق من شجر، أو حجر، أو عنصر، أو فلك، أو عقل، أو نفس، أو نحو

---

(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، د.صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، مؤسسة الرسالة:(١/ ٢٥).

ذلك هي أكبر مشاكل المتكلمين، بل هي مشكلة جميع المسلمين آنذاك، فلا تجد إكثارًا من الحديث عن توحيد الإلوهية في كتب التابعين، أو تابعيهم، أو الأئمة الأربعة المتبوعين، أو غيرهم ممّن عاصرهم، أو جاء بعدهم بقليل، وما ذلك إلاَّ لعدم شيوع الإنحراف بين المسلمين في هذه المسألة، وأصحاب الإتجاه السلفي في دراسة العقيدة الإسلامية أنفسهم يقرُّون بأنَّ مشكلة الشرك بزعمهم حدثت بعد المائة الرابعة الهجرية، يقول الشيخ الفوزان: (وأمَّا الشرك في المسلمين؛ فحدث على يد الشيعة الفاطميين بعد المائة الرابعة حينما بنوا المشاهد على القبور، وأحدثوا بدعة الموالد في الإسلام، والغلو في الصالحين، وكذلك عندما حدث التصوف المنحرف المتمثل بالغلوّ في المشايخ وأصحاب الطرق)[1].

وقد اعتذر الشيخ صالح آل الشيخ عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في إكثاره من الحديث عن توحيد الإلوهية دون توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات معلِّلا ذلك بالقول: (هذه الأنواع الثلاثة من التوحيد ذكرها الشيخ - رحمه الله- في هذا الكتاب لكنْ لَمَّا كانت التصانيف قبله اعتنى فيها العلماء - أعني: علماء السنة والعقيدة- ببيان النوعين الأول والثالث، وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، لم يبسط الشيخ - رحمه الله- القول فيهما، وإنَّما بسط القول فيما الناس بحاجة إليه، ويفتقدون التصنيف فيه)[2].

(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد :(٦/١).

(٢) التمهيد لشرح كتاب التوحيد : (ص٧).

أقول: ومع أنَّ هذا التعليل والإعتذار غير مقنعين، وهو خللٌ تصنيفي واضح؛ لكن يمكن القول بأنَّ اعتناء العلماء السابقين بعرض مسائل توحيد الربوبية والأسماء والصفات لا يغني عن التأليف بها مجدداً، وذلك لأنَّ الحاجة متجددة دومًا، وبخاصَّة في عصورنا، وهي من تفرض على المؤلف أنْ يكتب في هذا الموضوع، أو أنْ يترك هذا الموضوع، فلو قال لأنَّ أكثر مشكلة يواجهها المسلم في وقته كانت مشكلة الإلوهية لاتسع الأمر، ولقلنا أنَّه اكتفى بالإلوهية لاحتياج الناس لمسائلها وقضاياها، كما أنَّ النَّاس بحاجة دومًا لتسهيل اللغة الدينية وتذليلها للقارئ بحكم ابتعاد الأخير عن الألفاظ والعبارات والجمل المستخدمة من قبل الأوّلين، لهذا نحن هنا دومًا نعمل على تذليل العقبات أمام المسلم المعاصر وعدم الحيلولة بينه وبين كتب المتقدمين بسبب لغتهم.

كما أنَّ لنا أنْ نعتذر للمتكلمين بأنْ يقال إذا كان بداية الشرك – كما ذُكِر- حدثت بعد المائة الرابعة؛ فهذا يعني حدوثها بعد ظهور المدارس الكلامية وتأسيس مناهج البحث فيها؛ فلا غرابة أنْ تفتقر الأخيرة- إن سلّمنا بذلك- إلى المنهج التفصيلي في مبحث توحيد الإلوهية، مع عدم إغفالنا لجزئية بالغة الأهمية، وهي أنَّ مناهج البحث تختلف من مدرسة لأخرى، وما يظنُّه بعضهم من أنَّ المتكلمين أغفلوا مباحث الإلوهية والعبادة فهو ظنٌّ خاطئ؛ لأنّ المتكلمين بحثوا المسألة؛ لكنَّ خصومهم لم يلحظوها؛ لعدم وقوفهم على منهجهم في تقرير المسائل العقدية كما تقدم ذكره.

ومما يذكر هنا كدليل على أنَّ المشكلة مشكلةُ ربٍّ عند المتكلمين تلك المناظرة الشهيرة بين أحد أعلام الكلام، وهو الجهم

بن صفوان رأس الجهمية ومناقشته لأحد السمنية، يقول الإمام أحمد- فيما أخرجه- في الردِّ على الزنادقة والجهمية:" قال أحمد: وكذلك الجهم وشيعته، دعوا الناس إلى المتشابه من القران والحديث، فضلّوا وأضلّوا بكلامهم بشرًا كثيرًا، فكان مما بلغنا من أمر الجهم –عدو الله– أنه كان من أهل خراسان، من أهل ترمذ، وكان صاحب خصومات وكلام، وكان أكثر كلامه في الله تبارك وتعالى، فلقي ناسًا من المشركين يقال لهم: السُّمنية؛ فعرفوا الجهم، فقالوا له: نكلمك، فإنْ ظهرت علينا دخلنا في دينك؛ فكان مماَّ كلّموا به الجهم أنْ قالوا له: ألست تزعم أن لك إلهًا؟

قال الجهم: نعم [1].

فقالوا له: فهل رأيت إلهك؟

قال: لا.

فقالوا له: هل سمعت كلامه؟

قال: لا.

قالوا له: فشممت له رائحة؟

قال: لا.

قالوا: فوجدت له حسًّا؟

قال: لا.

قالوا: فوجدت له مجسًّا؟

قال: لا.

قالوا: فما يدريك أنَّه إله؟

---

(١) هكذا في النص، والأصوب: بلى!

فتحيَّر الجهم، فلم يدر من يعبد أربعين يومًا، ثم إنَّه استدرك حجة من جنس حجة الزنادقة من النصارى، وذلك أنَّ زنادقة النصارى يزعمون أنَّ الرّوح الذي في عيسى هي من روح الله من ذات الله، وإذا أراد الله أنْ يحدث أمرًا دخل في بعض خلقه؛ فتكلّم على لسان خلقه، فيأمر بما شاء، وينهى عن ما شاء، وهو روح غائب عن الأبصار.

فاستدرك الجهم حجة مثل هذه الحجة فقال للسُّمني: ألستَ تزعم أنَّ فيك روحًا؟

فقال: نعم.

قال: فهل رأيت روحك؟

قال: لا.

قال: فسمعت كلامه؟

قال: لا.

قال: فهل وجدت له حسًّا؟

قال: لا.

قال: فكذلك الله لا يرى له وجهٌ، ولا يسمع له صوتٌ، ولا يُشمّ له رائحةٌ، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان. قال: ووجد ثلاث آيات من القران من المتشابه، قوله: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ**﴾ ﴿**وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ**﴾ و ﴿**لَّا**

﴿ تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾ فبنى أصل كلامه على هؤلاء الآيات"[1].

فكانت هذه بداية فكرة التعطيل، ومن هنا يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في نونيته[2]:

لكنه أبدى المقالة هكذا ... في قالب التنزيه للرحمن

وأتى إلى الكفر العظيم فصاغه ... عجلا ليفتن أمة الثيران

وكساه أنواع الجواهر والحلي ... من لؤلؤ صافٍ ومن عقيان

فرآه ثيران الورى فأصابهم ... كمصاب إخوتهم قديم زمان

عجلان قد فتنا العباد: بصوته ... إحداهما وبحرفه ذا الثاني

والناس أكثرهم فأهل ظواهر ... تبدو لهم ليسوا بأهل معان

فهم القشور وبالقشور قوامهم ... واللبُّ حظ خلاصة الإنسان

وعلى مقالات الجهم ونحوها دارت ردود السلف والخلف، وقد أولى المتقدمون من السلف اهتمامًا بالغًا بالأسماء والصفات، ومرتكب الكبيرة، والقدر، ونحوها من مشكلات عصرهم، وفي هذا الصدد، يقول ابن تيمية: (فصنَّف ابن جريج التفسير والسنن، وصنَّف معمر أيضا، وصنَّف مالك بن أنس، وصنّف حماد بن سلمة

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد: (ص١٠١- ١٠٥)، والتسعينية، لابن تيمية: (١/٢٣٤- ٢٣٧).

(٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية(ت ٧٥١ه)، تحقيق: محمد عبد الرحمن العريفي ومجموعة، دار عالم الفوائد، مجمع الفقه الاسمي – جدة: (١/٩٢- ٩٣) .

كتابه ﭬ الصفات... وقد قيل: أنَّ مالكا إنَّما صنَّف الموطأ تبعًا له، وقال: جمعت هذا خوفًا من الجهمية أنْ يُضلّوا الناس لما ابتدعت الجهمية النفي والتعطيل، وكذلك كان يجمعُها، ويحدث بها غير واحد من أئمة السلف لما ابتدعت الجهمية النفي والتعطيل، حتى إنّه لَمَّا صُنِّفتْ الكتب الجامعة صنَّف العلماء فيها، كما صنَّف نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري كتابه ﭬ الصفات والرد على الجهمية، وصنَّف عبد الله بن محمد الجعفي شيخ البخاري كتابه ﭬ الصفات والرد على الجهمية، وصنَّف عثمان بن سعيد الدارمي كتابه ﭬ الصفات والرد على الجهمية، وكتابه ﭬ النقض على المريسي، وصنَّف الإمام أحمد رسالته ﭬ إثبات الصفات والرد على الجهمية، وأملى ﭬ أبواب ذلك حتى جمع كلامه أبو بكر الخلال ﭬ كتاب السنة، وصنَّف عبد العزيز الكناني صاحب الشافعية كتابه ﭬ الرد الجهمية، وصنَّف كتب السنة ﭬ الصفات طوائف مثل: عبد الله بن أحمد، وحنبل بن إسحاق، وأبي بكر الأثرم، وخشيش بن أصرم شيخ أبي داود، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، وأبي بكر بن أبي عاصم، والحكم بن معبد الخزاعي، وأبي بكر الخلال، وأبي القاسم الطبراني، وأبي الشيخ الأصبهاني، وأبي أحمد العسال، وأبي بكر الآجري، وأبي الحسن الدار قطني كتاب الصفات، وكتاب الرؤية، وأبي عبد الله بن منده، وأبي عبد الله بن بطة، وأبي القاسم اللالكائي، وأبي عمر الطلمنكي، وغيرهم)[1].

---

(١) التسعينية، لابن تيمية: (١/١٥٩- ١٦٨).

أقول: ما هذه التصانيف الكثيرة، وفي الصفات الإلهية بخاصّة إلاّ لأنَّهم لم يعرفوا مشكلة الإلوهية في تلك الأزمان؛ بلْ المشكلة عند السلف كانت مشكلة ربوبية وصفات ربٍّ عطَّلها أقوام، وجسَّمها آخرون، وعليه لا نكير على المتكلمين حينما يكثرون الكلام عن هذه المباحث دون غيرها، لأنَّ وظيفة المتكلم بالأساس دفاعية، وحينما تكون الهجمة موجهة باتجاه الربِّ وصفاته، فإنَّ من الطبعي أن يبحثوا هذه المسائل، ويولوها أهمية بالغة، لا أنْ ينقطعوا عن واقعهم، ويقبعوا خلف مقولات ومسائل لا تمت بصلة لحاضرهم.

وفيما يأتي الردود التفصيلية في نقض إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، وقد جعلتها في تعليقات، كي تحصر مادتها في ذهن المتلقي والقارئ الكريم:

التعليق الأول

لا يوجد تصريح من الشارع، أو من أهل العصور الأولى يجزم بأنَّ المشركين كانوا مقرين "بتوحيد الربوبية"، أو أنَّ مثل هذا المصطلح، أو معناه متداول عندهم، أو كان لديهم- في الأقلِّ - تصورٌ واضحٌ له، وهذا الأمرُ من الأهمية بمكان[1]، فقد سبق أنْ أوضحنا تصورات مشركي الجاهلية الدينية، وذكرنا ثمَّة بأنَّهم لا يملكون أدوات الفهم الصحيح، ولا يملكون أيَّ تصور دقيق عن الربِّ[2]، ومن المهمِّ هنا أنْ نقفَ على ما سطَّره الشيخ ابن تيّمية في

(١) نشير هنا إلى أن الشيخ ابن تيمية رحمه اللّه تعالى كان من أهمِّ أسباب ردِّه بعض الآراء والأفكار كالمجاز هو أنَّ الإصطلاح حادث جاء بعد انقضاء القرون الثلاثة المفضلة، فلم يتكلم به أحدٌ من الصحابة ولا التابعين ولا الأئمة المشهورين بالعلم كمالك والثوري والأوزاعي وأبي حنيفة والشافعي. ويرى أنَّه من حيل بعض الفرق كالمعتزلة والاشاعرة. مجموع الفتاوى: (٨٧/٧). والسؤال المثار هنا، هل توحيد الربوبية كاصطلاح كان معروفا عند هؤلاء أم هو اصطلاح حادث لم يكن معروفًا عندهم جميعا؟.

(٢) من المهمِّ الوقوف على أمر مهمٍّ هنا، وهو أنَّ الكثير من أبناء المدرسة السلفية يرون أنَّ الشرك حاصلٌ في هذه الازمان وواقعٌ عند كثير من المنتسبين لهذا الدين، مع أنَّهم يتلفظون بالشهادتين، وهما عماد التوحيد إلاَّ أنَّهم يجزمون بافتقار هؤلاء إلى تصور صحيح أو معرفة دقيقة بالشهادتين، وقد يكونون يصلّون آناء الليل وأطراف النهار، ويصومون للّه تعالى، ويحجون له. وهكذا يجزمون بأنَّ هؤلاء جميعًا ليسوا على دراية بلا إله إلاَّ اللّه، ولو كانوا على معرفة بها لما تسربلوا الشرك، ولبسوا رداءه. وهكذا نقول في مشركي الجاهلية؛ فقد حكى اللّه عنهم أنَّهم قالوا: اللّه ربُّ العالمين، الذي خلق السموات والأرضين، وهو الرازق الضار

=

كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم" وهو يصوّر حال النَّاس قبل مبعث رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم)؛ إذ يقول: (اعلم أنَّ اللّه سبحانه وتعالى بعث محمدًا صلى اللّه عليه وسلم إلى الخلق على فترة من الرسل، وقد مقت أهل الأرض: عربهم وعجمهم إلَّا بقايا من أهل الكتاب ماتوا، أو أكثرهم قبيل مبعثه. والنَّاس إذ ذاك أحد رجلين: إمّا كتابي معتصم بكتاب: إمّا مبدَّلٌ، وإمّا مبدَّلٌ منسوخٌ، ودينٌ دارسٌ بعضُه مجهولٌ، وبعضُه متروكٌ، وإمَّا أميٌّ مِنْ عربي وعجمي، مقبلٌ على عبادة ما استحسنه، وظن أنَّه ينفعه: من نجم، أو وثن، أو قبر، أو تمثال، أو غير ذلك. والنَّاس في جاهلية جهلاء من مقالات يظنونها علمًا، وهي جهلٌ، وأعمالٌ يحسبونها صلاحًا، وهي فساد، وغايةُ البارعِ منهم علمًا وعملًا أنْ يُحصِّلَ قليلًا من العلم الموروث عن الأنبياء المتقدمين، وقد اشتبه عليهم حقُّه بباطله، أو يشتغل بعمل، القليل منه مشروعٌ، وأكثرُه مبتدعٌ لا يكاد يؤثر في صلاحه إلَّا قليلًا، أو أنْ يكدحَ بنظره كدح المتفلسفة، فتذوب مهجته في الأمور الطبيعية، والرياضية، وإصلاح الأخلاق حتى يصلَ –إنْ وصل– بعد الجهد الذي لا يوصف إلى نزرٍ قليلٍ مضطربٍ، لا يروي، ولا يشفي من العلم الإلهي، باطلُه أضعافُ

=

النافع إلاَّ أنَّ ذلك مجرد قول لساني، ليس وراءه معرفة ولا علم؛ بل هو محض ظنون كما قال تعالى عنهم(إن نظن إلاَّ ظنًّا وما نحن مستيقنين).

حقِّه- إن حصل- وأنَّى له ذلك مع كثرة الإختلاف بين أهْلِه، والإضطراب وتعذر الأدّلة عليه والأسباب)[1].

وهذا التصوير الدقيق من الشيخ يعطينا تصورًا دقيقًا لحال النَّاس إبَّانَ مبعث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وأنَّ الجميع، ومنْهم أهلُ الأديان قد ركبوا متن عمياء، وأوغلوا في طرق الضلال، واستروحوا العقائد الباطلة والتصورات المغلوطة، ومن هنا نجزم بأنَّ مشركي الجاهلية قد كان لهم من اسمهم نصيبٌ أكبرُ، وحظٌ أوفرُ، فهم الجهلاء الذين يفتقرون لأدْنى ملامح العلم بعد أن ضرب الجهل بأطنابه في أفنيتهم، وربط الخطأ زمام راحلته بدورهم، وارتحل عنهم النهج السليم والتفكير القويم، فلا يقال بعد كلِّ هذا بأنَّ مشركي الجاهلية كانت لديهم تصوراتٌ صحيحة في أخطر موضوع، وهو الربُّ وصفاته!

يقول الشيخ ابن تيمية: (فالنَّاس قبل مبعث الرسول صلّى الله عليه وسلم كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإنَّ ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنَّما أحدثه لهم جاهل، وإنَّما يفعله جاهل)[2].

وإشارة الشيخ ابن تيّمية هنا لمصطلح الجهل والجاهلية التي كان العرب يوصفون بها هي في الحقيقة بيضة القبّان في بحثنا؛ اذ أنَّنا نريد توضيح أمرٍ مهمٍ هنا، وهو أنَّ مشركي الجاهلية ليس لديهم

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية: (٦٢/١-٦٣).

(٢) المصدر نفسه: (٢٣٠/١).

من العلم ما يؤهلّهم لبناء تصورات صحيحة بعيدة عن السذاجة التي عرفوا بها، وهو ما يؤكده الشيخ ابن تيمية، ويشير إليه بقوله: (وكذلك لفظ "الجهل" يعبّرُ به عن عدم العلم، ويعبّر به عن عدم العمل بموجب العلم... ومن هنا سمِّيت "الجاهلية" جاهلية، وهي متضمنة لعدم العلم، أو لعدم العمل به)[1] .

وعليه نجزم، ونقول: لا علم عند مشركي الجاهلية؛ بل قد طبع الله على قلوبهم، واعترفوا بألسنتهم على ذلك، فقالوا: ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾[2]، والغلف جمع أغلف، وهو ذو الغلاف الذي في غلاف، مثل الأقلف؛ كأنَّهم جعلوا المانع خلقة، أي خلقت القلوب عليها أغطية، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[3] ؛ فهم أناسٌ لا يفقهون حديثا، وكانوا يخاطبون أنبياءهم بهذه الحقيقة الصارخة ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾[4] ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾[5] أي: لأفهمهم ما سمعوه، ثم قال: ولو أفهمهم مع هذه الحال التي هم عليها؛ لتولوا وهم معرضون، فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا، ولو أفهمهم لم يعملوا؛

(١) الإيمان الأوسط، لابن تيمية: (ص٨٦) .

(٢) سورة البقرة: الآية ٨٨ .

(٣) سورة محمد : الآية ١٦ .

(٤) سورة هود: الآية ٩١ .

(٥) سورة الأنفال: الآية ٢٣ .

فنفى عنهم صحة القوة العلمية وصحة القوة العملية، وقال: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[1] وقال: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[2]، ومن النَّاس من يقول: لَمَّا لم ينتفعوا بالسمع والبصر جُعلوا صُمًّا بُكمًا عميًا، أو لَمَّا اعرضوا عن السمع والبصر صاروا كالصمِّ العمي، وليس كذلك: بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[3][4]، والقلب هو الملك، والأعضاء جنوده، وإذا صلح صلح سائر الجسد، وإذا فسد فسد سائر الجسد، فيبقى يسمع بالبدن الصوت كما تسمع البهائم، والمعنى لا تفقهه، وإن فقه بعض الفقه لم يفقه فقهًا تامًّا؛ فإنَّ الفقه التامّ يستلزم تأثيره في القلب محبة المحبوب، وبغض المكروه. فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلًا؛ فجاز نفيه، لأنَّ ما لم يتم ينفى، كقوله للذي أساء في

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٧٩ .

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧١ .

(٣) سورة الحج : الآية ٤٦.

(٤) سورة الحج : الآية ٤٦.

صلاته (صلِّ فإنَّك لم تصلِّ) [1] ونفى الإيمان حيث نفي من هذا الباب[2].

أقول: لا مزيد على ما سطّره الشيخ، فهو كلامٌ يستحق أنْ يكتب كلُّ حرف من حروفه بمداد من نور، وأنْ يُخطَّ على وجنات الحور لا على الورق، لأنَّنا لو بحثنا عن الما صدق لهذا الكلام لن نجد كمشركي الجاهلية من ينطبق عليهم الكلام تمام الإنطباق.

ومن هنا نجزم بأنَّ الدين الرسمي للعرب قبل الإسلام في الجزيرة العربية، وأهمها مكة هو: (الوثنية الدينية)، وهي وثنية لا تمتلك أيَّ مضمون فكري، وإنَّما هي وثنيةٌ جافة لا روح فيها[3].

وعليه فمن يزعم المشركين مقرين بتوحيد الربوبية فهو ينسب إليهم العلم بالله، وهو ما لا يتوافق مع جاهليتهم وجهلهم، يقول تعالى: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[4]، ويقول تعالى (واذا قيل لهم اسجدوا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: (ح- ٩٦٣٥).

(٢) ينظر: كتاب الإيمان الكبير، لابن تيمية: (ص٢٥- ٢٧).

(٣) ينظر: المدرسة الفلسفية في الاسلام بين المشائية والاشراقية، أ.د محمد إبراهيم الفيومي: (ص٣٥- ٣٦).

(٤) سورة الجاثية: الآية ٢٩ .

للرحمن قالوا وما الرحمن)، وفي صلح الحديبية لما امر رسول اللّه ص بكتابة بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو نائب المشركين في الصلح: أمَّا الرحمن فلا نعرفه، ولكن اكتب باسمك اللهم.

إذن المشركون لا يعرفون الرّحمن بهذا الوصف، وهم غير مستيقنين، ولا يدرون ما الساعة، وهم من كان يلهج بذكرها، وذكر الحساب، واليوم الآخر في أشعارهم، وغالب اعتقاداتهم باعترافهم تخرصات وظنون، ولأجلِ ذلك هم يستكبرون في الأرض، ويجرمون فيها!

يقول الشيخ ابن تيمية في كتابه الإيمان الأوسط عن هذه المقالة: (فالذي يقال هنا أحد أمرين: إمَّا أنْ يقال: الإستكبار والإباء والحسد، ونحو ذلك ممّا الكفر به مستلزم لعدم العلم والتصديق الذي هو الإيمان، وإلَّا فمن كان علمه وتصديقه تامًّا أوجب استسلامه وطاعته مع القدرة، كما أنَّ الإرادة الجازمة تستلزم وجود المراد مع القدرة، فعُلِم أنَّ المراد إذا لم يوجد مع القدرة، دلَّ على أنَّه ما في القلب همَّة ولا إرادة، فكذلك إذا لم يوجد موجب التصديق والعلم من حبِّ القلب وانقياده، دلَّ على أنَّ الحاصل في القلب ليس بتصديق، ولا علم، بل هنا شبهة وريب... أو أنْ يقال: قد يحصل في القلب علم بالحق وتصديق به، ولكن ما في القلب من الحسد والكبر ونحو ذلك مانع من استسلام القلب وانقياده ومحبته)[1].

---

(١) الإيمان الأوسط، لابن تيمية: (ص٨١).

وبهذا نجزم بعدم وجود علم للمشركين بالربِّ؛ فليس عندهم موجب التصديق والعلم من حبِّ القلب وانقياده، وإنْ في صدورهم إلاَّ شكٌّ ومرضٌ وكبرٌ، ولهذا لم يبالوا أنْ ينسبوا إلى اللّه ما لا تستقيم نسبتُه للرب، فضلا عن أنَّ توحيد الربوبية لا يمكن تحققُه إلاَّ بمعرفة الأسماء والصفات، لذا يُسمّى التوحيد الجامع للأمرين- الربوبية والأسماء والصفات- عند المدرسة السلفية بتوحيد المعرفة والإثبات، وعليه لا ربَّ بدون صفة، لأنَّ تعطيل الرب عن الصفات يجعله كالعدم، ومن هنا قيل المعطِّلُ يعبد عدمًا، والمشبِّه يعبد صنمًا، يقول ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية: (فالتوحيد العلمي الخبري له ضدّان، التعطيل والتشبيه والتمثيل، فمن نفى صفاتِ الربِّ عزَّ وجلَّ وعطَّلها كذَّب تعطيلُه توحيدَه، ومن شبَّهه بخلقه ومثَّله بهم، كذّب تشبيهُه وتمثيلُه توحيدَه)[1].

ومن هنا نجد أنَّ بعض أصحاب هذا الإتجاه يقتصرون على توحيد الربوبية وتوحيد الإلوهية كقسمين من أقسام التوحيد من دون تعرض لتوحيد الأسماء والصفات؛ لأنَّهم يرون أنَّ الربَّ لا يتم معناه بدون أسمائه وصفاته، والسبب في ذلك يُعلّلونه بالقول: (تقسيم التوحيد إلى قسمين هذا هو الأغلب في كلام أهل العلم المتقدمين، لأنَّهم يجمعون توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وذلك

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية: (ص٤٣).

بالنظر إلى أنَّهما يُشكِّلان بمجموعهما جانب العلم باللّه ومعرفته عز وجل، فجمعوا بينهما لذلك)[١].

وعليه ينبغي لِمنْ يزعم أنَّ المشركين مقرون بتوحيد الربوبية، أنْ يُلحِق بذلك إقرارَهم بتوحيد الأسماء والصفات، وهذا يستلزمُ قبلَ ذلك الإقرارَ لهم بمعرفة اللّه تعالى في جانب ربوبيته وفي جانب أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وهذا يستلزم أنْ يعرف المُقرُّ ربَّه غيرَ متركب من أجزاء متصلة أو منفصلة، وألاَّ يشبهه بخلقه، وأنْ يعرفَه حيًّا بلا موت يلحقُه، وقيّومًا لا ينام، وخالقًا بلا حاجة، ورازقًا بلا مؤنة، ومميتًا بلا مخافة، وباعثًا بلا مشقة، عالمٌ مع كمال وإحاطة، عادلٌ ومحسنٌ بلا ظلم، له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق... الخ[٢].، فهل كان المشركون يمتلكون تصورًا عن هذه

---

(١) معتقد أهل السنة والجماعة في الأسماء والصفات، د. محمد خليفة التميمي: (١/٤٣- ٤٤).

(٢) حكى القاضي عياض قال: حدث في القيروان مسألة في الكفار، هل يعرفون اللّه تعالى أم لا؟ فوقع فيها اختلاف العلماء، ووقعت في ألسنة العامة وكثر المراء، واقتتلوا في الأسواق إلى أنْ ذهبوا إلى أبي عمران الفاسي، فقال: إنْ أنصتم علّمتكم. قالوا: نعم. قال: لا يكلمني إلاَّ رجلٌ، ويسمع الباقون؛ فنصبوا واحدًا، فقال له: أرأيت لو لقيتَ رجلاً، فقلتَ له: أتعرف أبا عمران الفاسي؟ قال: نعم، فقلتُ له: صفه لي. قال: هو بقّال في سوق كذا، ويسكن سَبْتة، أكان يعرفني؟ فقال: لا. فقال: لو لقيتَ آخر فسألتَه كما سألتَ الأول، فقال: أعرفه، يُدرِّسُ العلم، ويفتي، ويسكن بغرب الشمّاط أكان يعرفني؟ قال: نعم. قال: فكذلك الكافر قال: لربِّه صاحبةٌ وولدٌ، وأنَّه جسم، فلم يعرف اللّه، ولا وصفه بصفته بخلاف
=

المعاني جميعًا؟ لا أظن ذلك، روى ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي، قال: " إنَّ قريشًا قيّضُوا لكلِّ رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه، فقيَّضُوا لأبي بكر طلحة بن عبيد اللّٰه؛ فأتاه، وهو في القوم، فقال أبو بكر: إلامَ تدعوني؟ قال: أدعوك إلى عبادة اللات والعزى، قال أبو بكر: وما اللاّتُ؟ قال : أولاد اللّٰه، قال: وما العزى؟ قال: بنات اللّٰه) [1].

فلينظر القارئ الكريم لهذه الرواية ويتفكر قليلاً، هل بقي معنى من معرفة الربِّ والإقرار بوجوده شيءٌ بعد الإعتقاد بوجود

=

المؤمن. فقالوا: شفيتنا ودعوا له، ولم يخوضوا بعد في المسألة. ينظر: سير اعلام النبلاء، ترجمة أبي عمران الفاسي: (١٧/٥٤٥- ٥٤٨).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، (ح- ١٨٥٠٥)، ولفظه كاملاً: (عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُثْمَانَ الْمَخْرَمِيِّ أَنَّ قُرَيْشًا قَالَتْ: قَيِّضُوا لِكُلِّ رَجُلٍ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ يَأْخُذُهُ، فَقَيَّضُوا لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ فَأَتَاهُ وَهُوَ فِي الْقَوْمِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلامَ تَدْعُونِي؟ قَالَ: أَدْعُوكَ إِلَى عِبَادَةِ اللاتِ وَالْعُزَّى! قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَمَا اللاتُ؟ قَالَ: رَبُّنَا قَالَ: وَمَا الْعُزَّى؟ قَالَ: بَنَاتُ اللَّهِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَمَنْ أُمُّهُمْ؟ فَسَكَتَ طَلْحَةُ، فَلَمْ يُجِبْهُ. فَقَالَ طَلْحَةُ لِأَصْحَابِهِ: أَجِيبُوا الرَّجُلَ، فَسَكَتَ الْقَوْمُ، فَقَالَ طَلْحَةُ: قُمْ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا الْآيَةَ) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط٣، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ: (١٠/٣٢٨٣).

الأجزاء المنفصلة للربِّ من بنين وبنات، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علّوًا كبيرًا.

يقول الشيخ صالح الأسمري وهو يشرح كتاب كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبد الوهاب: (كيف يوحِّدُ الإنسان الربَّ في العبادة وأفعاله التي يتقرَّب بها، إلاَّ إذا أيقن وجزم أنَّ الله هو المستحق لذلك، ولا يوقن إلاَّ إذا عرفَ اللَّهَ بكماله، وتمام صفاته، وجميل فعاله وما إلى ذلك، ومن ثم كان توحيد المعرفة والإثبات هو أصل التوحيد وهو الذي ينبني عليه توحيد العبادة)[1].

وعليه من يريد من النَّاس توحيد الإلوهية يجب عليه أنْ يوقفهم أوّلاً على توحيد الربوبية، وأنْ يعرفوا الله تعالى بكمال الصفات وجميل الفعال، لا أنْ يعرف الربَّ معطَّلاً من الصفات، أو له بنين وبنات!

وإشارةُ الشيخ الأسمري مهمة، وتؤدي إلى نتائج خطيرة؛ لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم – بحسب هذا الزعم- دعا المشركين إلى الإلوهية وتوحيد العبادة؛ لأنَّهم مقرون سلفًا بالربوبية، وهذا يستلزم بأنَّ مشركي الجاهلية كانوا على دراية وافية ومعرفة تامة بصفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، ولو إجمالًا، كي تسوغ دعوتهم من قبل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى توحيد الإلوهية.

وقد اُلتزمت هذه النتيجة من قبل بعضهم؛ فقالوا: (إنَّ النّاس إبَّان مبعث النبي (صلى الله عليه وسلم) كانوا مؤمنين بوجود الله، وبذات الله، وبصفات الله، وبأفعال الله، وأنَّ الله هو الرزاق، وأنَّ

---

(١) الدلائل والإشارات على كشف الشبهات، صالح الأسمري: (ص٣٣) .

الله هو الخالق، وأنَّ الله هو المحيي المميت، وأنَّ الله هو المنعم على النَّاس، وأنَّ الله هو المدبِّرُ للكون كلِّه، هم مؤمنون بذلك إيمانًا جُمْليّا[1])[2].

أقول: لو تنزلّنا مع أصحاب هذا الإتجاه لكان من المفروض أنْ لا يتعرض القران لمسائل توحيد الربوبية، وكان من المفترض أنْ يقتصر التوحيد على توحيد الإلوهية دون توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وكان ينبغي عدم تسويد صفحات الكتب بالتقسيم الثلاثي المعروف؛ لكن كلّ ذلك لم يحصل، لأنَّ كثيرًا من أصحاب هذا الاتجاه أنفسهم قد فصَّلوا في توحيد الربوبية، وأوضحوا أهميَّته، وكذا بالنسبة لتوحيد الأسماء والصفات، وأنَّه لا يستقيم التوحيد من دونهما، لأنَّ التوحيد بأقسامه الثلاثة عند القائلين به،

---

(١) المرجع نفسه: (ص٢٦).

(٢) الإيمان الجملي، هو ما كان دليله إجماليًّا، والدليل إمَّا أن يكون إجماليًّا أو تفصيليًّا، وهذا بخلاف المقلِّد الذي لا دليل له، وإنَّما هو تبع لغيره. من هنا؛ فالزعم بأنَّ مشركي الجاهلية مؤمنون بكلِّ ما ذكر في النص إيمانا جمليا؛ لهو من عجائب المصائب، فما دليلهم على وجود الله تعالى، وصفاته، وأفعاله، ورزقه وإحيائه وإنعامه وتدبيره... إلخ؟، وماذا بقي للصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ومشركو الجاهلية يؤمنون دليلا جمليا؟؛ فهل أدلة الصحابة كانت تفصيلية؟، وهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوقف في قبول إيمان من يؤمن حتى يسأله عن الدليل؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي من الحريِّ الإجابة عنها من قبل أصحاب المدرسة أنفسهم؛ لأنَّهم أهل الدار، وهم أعرف بمن فيه!.

توحيد بعثت به الرسل والأنبياء، وهذا يعني ضرورة معرفة كلِّ قسم منه، وتحقيق القول في كلِّ واحد من الأقسام الثلاثة.

يقول صاحب كتاب الشرك في القديم والحديث- وهو من الإتجاه الأثري أيضًا- ، وهو يتحدث عن التقسيم الثلاثي للتوحيد: (لقد ثبتَ بالتتبع والاستقراء أنَّ التوحيد الذي نزلت به الكتب ودعت إليه الرسل ينحصر في هذه الأقسام للتوحيد، لا يكمل توحيد العبد وإيمانه إلَّا باستكمالها جميعًا، وقد أوردنا الأدّلة على هذه الأنواع من القران، فهذا غيض من فيض، بل القران كلُّه في بيان هذه الأنواع للتوحيد) [1].

وسبق أنْ ذكرنا ما يدلّل بما لا لبس فيه بأنَّ مشركي الجاهلية قد وقعوا صرعى أفكار تخلُّ بمفهوم توحيد الربوبية، إذ لا يبقى بعد إثبات الأجزاء وانفصالها عن الربِّ من الأبناء والبنات، شيءٌ من معاني الربوبية، كما لا يبقى من مفهوم الربوبية مع إثبات إلهين أحدهما للنور والآخر للظلمة، وكما لا يبقى من معاني الربوبية شيءٌ مع تجريد الربِّ من الصفات. قال تعالى حكايةً عن عن خليلِه إبراهيم عليه السلام في محاجّته لأبيه: ﴿ **يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا** ﴾ ولا أعرف كيف ساغ الزعم بأنَّ مشركي الجاهلية يعرفون اللّه بصفاته مع أنَّ أتباع النبيين وقعوا في عدم معرفة ذلك، فهؤلاء قوم موسى قال تعالى حاكيا عنهم : ﴿ **وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ**

(١) الشرك في القديم والحديث: (١/٧١- ٧٢) .

بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾[1].

يقول ابن القيم في مدارج السالكين:(وهذا أمرٌ معلومٌ بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية، أنَّ فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا ولا مدبِّرًا ولا ربًّا؛ بل هو مذموم معيب ناقص ليس له الحمد، لا في الأولى ولا في الآخرة، وإنّما الحمدُ في الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال ونعوت الجلال)[2]. فهل كان مشركو الجاهلية يعرفون صفات الكمال ونعوت الجلال؟.

ومهما قيل ويقال إلَّا أنَّ الأكيد أنَّ المسألةَ إجتهاديةٌ سواء من قبل النافي، أو المثبت، والأمر فيه سعة وغير مستساغ هنا الجزم بصوابية الرأي وخطأ الرأي المخالف، ومن هنا أرى جرأة غريبة حينما يقال: (ما أرسل الرسل يعلمون النَّاس الفلاحة والزراعة والصناعة، ولا ليعلموهم الأكل والشرب، ولا ليعلموهم أنْ يُقِرّوا بوجود الربِّ والربوبية)[3] .

أقول: جرأة عجيبة وخلط واضح، وتهكم ممجوج من وظيفة مهمة من وظائف الرسل والدعاة، والمسألة برمتها - كما تقدم - لا تعدو كونها إجتهادية، وإذا كانت كذلك، فإنَّ من الخطأ التعميم؛ فيقال: (أمَّا الأوّل - توحيد الربوبية - فما وقعت فيه خصومة، لأنَّ

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٨ .

(٢) مدارج السالكين إلى إياك نعبد ونستعين، لابن القيم: (٣٢/١).

(٣) إعانة المستفيد: (٣٥/١) .

الأمم مقرة بأنَّ اللّه هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر، ولم ينكر توحيد الربوبية إلاَّ شذاذٌ من الخلق، أنكروه في الظاهر، ولكنهم مستيقنون به في الباطن، من ذلك فرعون)[1].

أقول: كيف يكونون شذّاذًا، والنصارى تتفاوتُ أقوالهم بين أنَّ اللّه هو المسيح ابن مريم، أو هو ابن اللّه، أو هو ثالث ثلاثة، وكانوا في القديم على هذه المقالة، وبخاصَّة بعد اعتناق الدولة الرومانية الوثنية لهذه الأفكار، وهم اليوم أكثر. وكيف يكونون مقِّرين بتوحيد الربوبية، وهم يصرفون شيئًا من أمور التدبير لعيسى عليه السلام؛ فيزعمون أنَّه المخلِّص ضمن ما يُسمّى بعقيدة الفداء؟، أو كاليهود حينما زعموا أنَّ العزير ابن اللّه، وكشعوب اليونان المختلفة الإتجاهات المتوحدة في اعتقاد كفريات الألهة المتعددة والمتصرفة في مقادير العالم، كاعتقادهم بالموجودات الثواني، أو العقول العشرة، وأنَّها متولدة عن اللّه وصادرة عنه تحت قاعدة الواحد لا يصدر عنه إلاَّ واحد، لم يخلقها اللّه بمشيئته وحكمته، ويزعمون أنَّها تدبِّرُ أمر العوالم المتكثرة، فالعقل الأوّل أبدع كلَّ ما سوى اللّه عندهم، والثاني أبدع ما سوى اللّه والعقل الأول، حتى ينتهي الأمر إلى العقل العاشر، المعروف بالعقل الفعال، المتعلق بما دون بفلك القمر، فيقولون: أنَّه أبدع ما تحت الفلك؛ فهو عندهم المبدع لما تحت السماء

(١) إعانة المستفيد: (٢٦/١).

من هواء وسحاب وجبال وحيوان ونبات ومعدن، ومنه يفيض الوحي والعلم على الأنبياء وغيرهم[1].

أو كالصابئة قوم إبراهيم عبدة الهياكل والكواكب وأتباع النمرود مدعي الربوبية، وكالثنوية من المجوس عبدة النور والظلمة، وإله الخير والشر، وكالبوذية والهندوسية وغيرهم، فأين إقرار الأمم بالتوحيد؟!.

لا يقال في هؤلاء جميعًا بأنَّهم أقرُّوا بوحدانية الربِّ[2] خالقًا ورازقًا ومحييًا ومميتًا وضارًّا ونافعًا ومدبِّرًا متصرفًا في العالم، لأنَّ الأكيد أنَّ الربَّ بهذا التوصيف لم يقفوا عليه مطلقًا.

يقول ابن القيم: (وأمَّا التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه... وهو نوعان: توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد في المطلب والقصد. فالأوّل: هو حقيقة ذات الربِّ تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعلّوه فوق سمواته على عرشه، وتكلّمه بكتبه وتكليمه لمن يشاء من عباده، واثبات عموم قضائه وقدره وحكمه. وأفصح القران عن

---

(١) ينظر: آراء أهل المدينة الفاضلة: (ص٢٢- ٢٥)، الرسالة العرشية، لابن سينا: (ص١٥- ١٦)، الصفدية، لابن تيمية: (٩/١).

(٢) قد قيل، يقول ابن تيمية: (ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أنَّ النجم، أو الشمس، أو القمر رب العالمين، أو أنَّ الخليل- عليه السلام- لما قال: "هذا ربي" أراد به رب العالمين فقد غلط غلطا بينا، بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع، وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين... فإنَّ قومه كانوا يشركون، ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين؛ فلم يكونوا جاحدين للصانع) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح : (٣٥٥/١- ٣٥٦).

هذا النوع جدّ الإفصاح، كما في أوّل سورة الحديد وسورة طه، وآخر سورة الحشر، وأول سورة تنزيل السجدة، وأول سورة آل عمران، وسورة الإخلاص بكاملها، وغير ذلك.

والنوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1] وقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[2] الآية، وأوّل سورة تنزيل الكتاب وآخرها، وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القران، بل كل سورة في القران فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه...)[3] .

وقبل أنْ أنهي حديثي في هذا التعليق أشير هنا إلى أنَّ مصطلح الربوبية أدخلت فيه معان كثيرة، وبخاصّة عند متأخري زمننا حتى أصبح من العسير الميز بين مصاديق الإلوهية والربوبية؛ لذا كان مهمًا أنْ يُحدَّدَ المصطلح من قبل أهل العصور الأولى؛ لأنَّه كان سيفضي إلى غلق نافذة الإختلاف وتعدد الآراء؛ بيدَ أنَّ كلَّ ذلك لم يحصل، وعليه فمن يريد تحقيق المصطلح ومعرفة مصاديقه إذا لم يُوفَّقْ لحقيقته شرعًا، أنْ يرجع لحقيقته في اللغة، ومنها تبدأ مرحلة التأسيس، ولو رجعنا لوجدنا مصطلح الربوبية يتمحور حول تدبير العالم وإصلاحه وملكه وإدارته وتصريف شؤونه، وهذا أعمُّ من الخلق والإحياء والإماتة والرزق، ونحوها.

---

(١) سورة الكافرون: الآية ١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٦٤ .

(٣) مدارج السالكين: (٣/٤٤٩).

التعليق الثاني

الوحدانية لفظٌ عامٌ، وهو باصطلاح المناطقة "كلٌّ" لا "كليّ" يقال على مجموع عدة أجزاء، وحدانية الذات، ووحدانية الصفات، ووحدانية الأفعال، وبمجموع هذه الأجزاء يتحقق توصيف الموحّد، فهو من تقسيم الكلِّ إلى أجزائه، لا من تقسيم الكلي إلى جزئياته، بمعنى أنَّه لا يصحّ اطلاق اسم الموحد إلَّا على من جمع القيود الثلاثة آنفة الذكر. ومحالٌ أنْ يوجد بدون أجزائه، أو بعضها؛ فلا يقال موحّد على من انخرمت عنده أحد الأجزاء، ولا يقال موحّد على من جمع توحيد الربوبية دون الأفعال (الإلوهية)، والصفات، أو من جمع الإلوهية دون الربوبية والصفات، يقول صاحب كتاب الشرك في القديم والحديث: (فما آمن من لم يؤمن بهذه الأنواع المستمدة من نصوص الشرع؛ إذ التوحيد المطلوب شرعًا هو الإيمان بوحدانية اللّه في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، ومن لم يأت بهذا جميعه فليس موحِّدًا، وهذا ثابتٌ بالإستقراء، والإستقراء دليلٌ يفيد القطع إذا كان تامًّا، فهاهنا نحن استقرينا النصوص الشرعية كلَّها؛ فلم نجد إلَّا هذه الأقسام الثلاثة وما يتعلق بها، ممّا يدلّ على أنَّ هذه الأقسام قطعية، وهذه الأقسام تُشكِّلُ بمجموعها جانب الإيمان باللّه الذي نسميه التوحيد، فلا يصحُّ لأحد توحيده إلَّا باجتماع أنواع التوحيد الثلاثة؛ فهي متلازمة يلزم بعضها بعضًا...)[1].

وتقسيم الكلِّ إلى أجزائه هي القسمة المشهورة في الأمْر العام، يقول ابن تيمية في الردِّ على المنطقيين: (القسمةُ نوعان: قسمة

---

(١) الشرك في القديم والحديث: (٧٦/١).

"الكلي" إلى جزئياته، وقسمة "الكل" إلى أجزائه، والقسمة الثانية هي المعروفة في الأمْر العام، كما يقول العلماء(باب القسمة)، ويذكرون قسمة المواريث والمغانم والأرض وغير ذلك... وأمَّا تقسيم الكلي إلى جزئياته، فمثل قولنا: الحيوان ينقسم إلى ناطق وأعجم، وهو قسمة الجنس إلى أنواعه، والنوع إلى أشخاصه...)[1].

وحين (يقال "اغسلوا وجوهكم" فإنَّ اسم الوجه يعم الخد والجبين والجبهة، وكلّ واحد من هذه الأجزاء ليس هو الوجه؛ فإذا غسل بعض هذه الأجزاء لم يكن غاسلًا للوجه لانتفاء المسمى بانتفاء الجزء)[2].

ومثلُ ذلك لفظ الإسلام يطلق على عدة أجزاء، لا يستقيم إطلاق الإسم على من زعمه، أو من لم يقرّ بأقسامه إقرارًا صحيحًا، لا اعترافًا لسانيًّا، ولهذا لمَّا نزلَ قول الله تعالى﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[3] .

يقول ابن تيمية: (قالت طائفة من السلف: لما أنزل هذه الآية، قال من قال من اليهود والنصارى نحن مسلمون. فقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ

(١) كتاب الرد على المنطقيين، لابن تيمية، تح الكتبي: (ص١٦٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم: (١/١٧٠).

(٣) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾[1] فقالوا: لا نحج. فقال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2]

فكلُّ من لم ير حجَ البيت واجبًا عليه مع الإستطاعة؛ فهو كافر باتفاق المسلمين كما دلَّ عليه القران. واليهود والنصارى لا يرونه واجبًا عليهم، فهم من الكفار حتى أنَّه روي في حديث مرفوع إلى النبيِّ –صلى الله عليه وسلم- : (من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج؛ فليمت إن شاء يهوديًّا وإنْ شاء نصرانيًّا[3])[4].

ومن هذا القبيل القولُ بإثبات توحيد الربوبية يستلزم لمن قال به أنْ يجمع خصائصه الثلاثة: الملك، والسيادة، والتدبير، وبمجموعها يتحقق توحيد الربوبية؛ فلا يُسمّى من قال بواحد منها اسم المقّر بتوحيد الربوبية، وعليه لم يكن مشركو الجاهلية مقرين في حقيقة الأمر بتوحيد الربوبية؛ لأنَّنا سنلحظ لاحقًا وجود انخرام في أحد توصيفات الربوبية.

لهذا لم يجد أصحاب هذا الإتجاه سبيلاً سوى الاعتراف بأنَّ المشركين لم يكونوا يقرون بتوحيد الربوبية على التمام والكمال،

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه برقم (٨١٢) من طريق الحارث عن علي وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي إسناده مقال، وهلال بن عبد الله مجهول، والحارث يضعف في الحديث، وحكم الألباني بتضعيفه. سنن الترمذي: (١/١٧٦).

(٤) الشرك في القديم والحديث: (١/١٠٤).

بلْ شاب إقرارَهم الخللُ والنقص، وفي هذا يقول صاحب كتاب الشرك في القديم والحديث- وهو من أصحاب الإتجاه الأثري: (ثم هنا أمرٌ لابدَّ من تقريره وإيضاحه، وهو أنَّ قولَ أهل العلم عن المشركين بأنَّهم يعترفون بتوحيد الربوبية ليس المراد به أنَّهم اعترفوا بهذا القسم من التوحيد على التمام والكمال، فهذا لا يقول به أحد من أهل العلم، وإنَّما مرادهم تقرير ما ثبت في القران عن المشركين من اعترافهم ببعض صفات الربوبية وخصائصها)[1].

أقول: ما دام أنَّه لم يقلْ به أحدٌ من أهلِ العلم؛ فكنَّا نتمنى تخصيص اطلاقات الكلام حول المسألة والإيضاح بأنَّ المسألة لا تعدو كونها إجتهادية، وهو ما نريد أنْ نصلَ إليه، ويكفينا ذلك لو اكتفى الآخرون به، ولم يعيبوا على الآخرين، وإذا كان الأمر كذلك فعلينا ألاَّ نوجد التبريرات الواهية لكي نصحِّحَ فكرة ما؛ فحينما يقول الشيخ ابن تيمية رحمه اللّه تعالى: (إنَّ كثيرًا من أهلِ الشرك والضلال قد يضيف وجود بعض الممكنات، أو حدوث بعض الحوادث إلى غير اللّه، وكلُّ من قال هذا لزمه حدوث الحادث بلا سبب، وهم مع شركهم وما يلزمهم من نوع تعطيل في الربوبية، لا يثبتون مع اللّه شريكًا مساويًا له في أفعاله ولا في صفاته)[2].

أقول: علينا أنْ نقف طويلاً للتأمّل وإعمال الفكر في هذا الكلام، وهل نحن بحاجة ماسّة بالفعل لكي ننفي الشرك عمَّن يضيفُ بعضَ الممكنات أو حدوث بعض الحوادث إلى غير اللّه تعالى،

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية: (١٢٥/٢).

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية: (٣٤٧/٩).

مع تحقُّقِه بالشرك، وما يلزمه من نوع تعطيل في الربوبية؟!؛ ثمَّ ماذا يبقى بعد نسبة بعض الممكنات أو حدوث الحوادث إلى غير الله تعالى، وماذا يبقى من توحيده تعالى في الأفعال والصفات؟ حتى يقال: أنَّهم لا يثبتون مع الله شريكًا مساويًا له في أفعاله ولا في صفاته!!.

التعليق الثالث

لا نملك للمشركين سوى اعتراف لساني: (ليقولنَّ اللّه)، (دعوا اللّه مخلصين له الدين)[1]، في قبال إنكارات لسانية وفعلية كثيرة حكاها القران عنهم أيضًا، فضلاً عن نصوص أخرى تكذب جميع اعترافاتهم اللسانية، وأنّ القوم كاذبون فيها، يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[2] يقول ابن تيمية: (ودلَّ ذلك على أنّ النّاس في قولهم: آمنا؛ صادق وكاذب، والكاذب فيه نفاق بحسب كذبه... وفي الحديث: (أساس النفاق

---

(١) هذه الاية ونظيراتها دلائل مهمة على أن إعترافهم وحكايتهم هذه ليست إلاَّ اعترافًا لسانيًّا، ليس وراءه معرفةٌ بالربِّ ولا وحدانية له، بدليل أنَّهم وبمجرد تخليصهم من شدتهم، تجدهم يعودون إلى الإشراك به، فضلاً عن أنَّ هذه الآية ونظيراتها وكما في التفاسير تشير إلى أنَّ بعض أهل السفينة هم من يشير إلى ضرورة الإلتجاء إلى اللّه في هذا الموقف، وأنَّ هذه الحوادث جرت في عهد الرسالة ممَّن أيقنوا بحقيقة الربِّ من قبل النبيِّ محمد صلى اللّه عليه وسلم، وقد أوقفهم على جميع ذلك، وقد ذكر محمد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل، أنَّه لمَّا فتح رسول اللّه- صلى اللّه عليه وسلم- مكة ذهب فارًّا منها، فلمَّا ركب في البحر؛ ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: ياقوم! أخلصوا لربِّكم الدعاء، فإنَّه لا ينجي هاهنا إلاَّ هو. فقال عكرمة: واللّه إنْ كان لا ينجي في البحرِ غيرُه، فإنَّه لا ينجي غيرُه في البرِّ أيضًا، اللّهم لك عليَّ عهدٌ لئن خرجتُ لأذهبنَّ فلأضعنَّ يدي في يد محمد فلأجدنَّه رؤوفا رحيمًا، وكان كذلك.ينظر: تفسير القران العظيم: (٥٢٩/١٠).

(٢) سورة البقرة: الآية ٨ .

الذي يبنى عليه الكذب)[1] وقال تعالى ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾[3] ...)[4].

فكانت صلاتهم عبارة عن صفير وتصفيق مع الطواف عراة بالبيت، وكانت صلاتهم مع سجودهم للأصنام ونحر الجزور لها وتقديم مختلف القرابين على عتبتها، وكانوا يذكرون الله مع قوله (أعل هبل)، ويذكرون أسماءهم على ذبائحهم دون اسم الله تعالى. ولا قائل بأنَّ فعلهم للطواف صحيح، ولا صلاتهم كذلك مع تأديتهم لها ومع إخبار الشارع عنهم بذلك؛ فعليه اعترافهم اللساني غير صحيح كذلك. ولا عبرة بعد هذا بزعم أصحاب الإتجاه السلفي حينما يقرِّرون قائلين: (أنَّ المشركين إبَّان بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يدعون الله– جلَّ وعلا- ليلًا ونهارًا، وكانوا يتصدقون،

---

(١) اخرجه الفريابي في صفة النفاق وذم المنافقين، : (ص٩٠)، عن الحسن البصري، قال محقّقه: إسنادُه حسن.

(٢) سورة المنافقون: الآية ١.

(٣) سورة التوبة: الآيات ٧٥ – ٧٧ .

(٤) الإيمان الأوسط، لابن تيمية: (ص٨٨- ٨٩) .

ويصومون، ويحجون إلى غير ذلك من التعبدات إلا أنَّهم يشركون مع الله سبحانه وتعالى آلهة أخرى)[1].

لا عبرة في هذا الكلام؛ لأنَّ فيه إيهامًا للقارئ بأنَّها تعبداتٌ صحيحةٌ، لو لم يقترن بها الشرك، مع أنَّها باطلةٌ بيّنة البطلان في نفسها وبغضِّ النظر عن اقترانها بالشرك من عدمه؛ فتعبدات المشركين كانت على صورة مغايرة تمام المغايرة عن حقيقة التعبدات الشرعية، ولا يوجد بينها وبين تعبدات المسلمين وأهل الديانات السابقة صلة أو علاقة؛ بلْ يمكن الجزم أيضا ببطلان تعبدات أصحاب الديانات السابقة؛ لانحرافها عن معانيها وصورها الأصلية؛ فكيف بتعبدات الوثنيين والمشركين الجهلة!! .

ولهذا يمكن أنْ نردَّ على هذا القول من كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب نفسه في قواعده الأربعة، وهو يقرّر قائلاً: (اعلم أنَّ العبادة لا تسمى عبادة إلّا مع التوحيد، كما أنَّ الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة)[2].

وهذا أمر مهم؛ لأنَّ كثيرًا من النّاس يتلبسون بالعبادة مع عدم قيامهم بشرائطها وأركانها، أو امتناعهم عن موانعها ونواقضها؛ فلا يبقى له منها سوى المتابعة الصورية التي لا يصح شرعًا إسباغ التسمية الشرعية عليها لما سيورثه من نتائج سلبية: (فالعبادة لا بد أنْ تكون مطابقة لما جاء به النبيُّ (ﷺ) ليس فيها بدعٌ، ولا خرافاتٌ، ولا محدثاتٌ، ولا استحساناتٌ للعقول، أو اقتداءُ فلانٍ أو علّان، ما دام أنَّ

(١) المصدر نفسه.

(٢) شرح القواعد الأربعة، عبد الرحمن بن ناصر البراك: (ص٤).

هذا المقتدى ليس متبِّعًا للرسول (صلى الله عليه وسلم) فليس بقدوة، هذه هي العبادة، ولهذا يقول ابن القيم –رحمه الله- في النونية:

حــق الإلــه عبــادة بــالأمر لا بهوى النفوس فذاك للشيطان[1]

... فالذي يعبد الله باستحسان عقله، وشهوة نفسه بشـــيء لم يشـــرّعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليس عابدًا لله، وإنَّما هو عابد للشيطان، لأنَّه هو الذي أمره بذلك؛ فالشيطان يأمر بالبدع والخرافات.

وقال في موضع آخر:

وعبــادة الــرحمن غايــة حبــه مـــع ذل عابـــده همـــا قطبـــان

وعليهمــا فلــك العبــادة دائــر مـــا دار حتـــى قامـــت القطبـــان

ومــداره بــالأمر أمــر رســوله لا بالهوى والنفس والشيطان[2])[3]

فهل كـان المشـركون يتعبـدون الله بـأوامر الشـرع، أو أوامـر الرسل والأنبياء السابقين للنبيِّ الخاتم (صلى الله عليـه وسـلم)؟، وهـل كـانوا يقيمـون العبـادات بشـروطها وأركـانهـا؛ فيتطهـرون لصـلاتهم، ويقيمون أركـانها وشـروطها، ويمتنعون عن موانعها ونواقضـها؟، وهـل كـان صـيامهم بالشـروط والأركـان المعتـبرة؟، وهـل كـان كـذلك حجّهـم كـذلك؟ لا ريـب أنَّ تعبـداتهم لـيس فيهـا إلَّـا الإسـم مـن غـير محتوىً معتبرٍ وصحيحٍ شرعًا، وعليه؛ فصـلاتهم باطلـةٌ، وصـومهم غـير معتـبر بـه، وحجّهـم باطـلٌ بغـض النظـر عـن كـونهم مشـركين مـن

---

(١) مـتن القصـيدة النونيـة، لابـن القـيم، ط٢، مكتبـة ابـن تيميـة، القـاهرة، ١٤١٧ه: (ص٢٥٠).

(٢) متن القصيدة النونية، لابن القيم: (ص٣٥).

(٣)إعانة المستفيد: (٦٢/١).

عدمه، وعن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال عمر رضي اللّه عنه: كان أهل الجاهلية، لا يفيضون من جمع حتى تطلع الشمس، ويقولون أشرق ثبير، كيما نغير، قال: فخالفَهم رسولُ اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم، وأفاض قبل طلوع الشمس[1].

فهل في ذلك آثارة من علم، أو بقية من رسل اللّه وأنبيائه؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب متى يدفع من جمع: (٢/٢٠٤، ح-١٦٨٤).

التعليق الرابع

لا نسلّم أنَّ اعترافهم اللساني يُعدُّ إقرارًا منْهم، فالإقرار لغةً: هو الإعتراف والإذعان والإثبات، كما يطلق الإقرار على الشيء إذا سكن وانقاد[1].

وينقل أبو هلال العسكري في فروقه اللغوية عن أبي جعفر الدامغاني ارتباط الإقرار بالإلتزام بينما الإعتراف ليس فيه إلتزام، ولهذا اختار أصحاب الشروط لفظ أقرّ به، ولم يختاروا اعترف به[2]، ولا يخفى انَّ هذا المعنى غير متحقق عند المشركين فلا يقال بأنَّ المشركين مقرّون بالربوبية؛ لانعدام التوطين النفسي والانقياد والإذعان. والخطأ عند أصحاب الإتجاه الأثري في هذه المسألة نجمَ من تحديد مصطلح الإقرار؛ إذ قرّروا حقيقته بالقول: (من الإقرار، وهو المعرفة، يقال: أقرَّ فلان بكذا، إذا اعترف به)[3].

يقول الشيخ ابن تيمية: (فإنَّه لم يأمرهم بإقرار مجرد عن الشهادتين؛ بلْ أمرهم بالشهادتين ابتداء، والشهادتان تتضمن المعرفة؛ فلو أقرّوا بالصانع، وعرفوه من غير إقرار بالشهادتين لم يقبل ذلك

---

(١) ينظر: الصحاح، للجوهري: (٢/٧٩٠- ٧٩١)؛ أساس البلاغة: (ص٣٦١)؛ مختار الصحاح: (ص٥٢٩)؛ لسان العرب، لابن منظور: (٥/٨٨)؛ المصباح المنير، للفيومي: (٢/٤٩٧)؛ النظم المستعذب في شرح غريب المهذب: (٢/٣٤٤)؛ تاج العروس، للزبيدي: (٣/٤٨٨)؛ القاموس المحيط: (٢/١١٦)؛ المعجم الوسيط: (٢/٧٣١).

(٢) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة: (ص٤٨).

(٣) الدلائل والإشارات، الشيخ صالح الاسمري: (ص٣٨).

منهم، ولم يخرجوا بذلك من الكفر)[1]، ويوضح هذه الفكرة بصورة أكثر وضوحًا في كتابه الإيمان الأوسط؛ فيقول: (ولفظ الإقرار يتضمن الإلتزام، ثم إنَّه يكون من وجهين: أحدهما: الإخبار: وهو من هذا الوجه كلفظ التصديق، والشهادة ونحوهما. وهذا معنى الإقرار الذي يذكره الفقهاء في كتاب الإقرار. والثاني: إنشاء الالتزام، كما في قوله تعالى: ﴿ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم وَلَا وَلَامِّنَ وَلَاٱلشَّٰهِدِينَ وَلَا ﴾[2]، وليس هو هنا بمعنى الخبر المجرد فانه سبحانه قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ ﴾[3] فهذا الالتزام للإيمان والنصر للرسول)[4].

أقول: فهل إلتزم مشركو الجاهلية بادّعائهم اللساني ومزاعمهم القولية، وهل وطّنوا نفوسهم على الإذعان بمحتوى إقرارهم المزعوم، وهل كان وراء ذلك الزعم القولي معرفة بحقيقة المقّر به؟ أظن أنَّ ما تقدم من تعليقات، وما سيأتي ستوصل القارئ إلى نتيجة مفادها كذب ادّعاءات المشركين وزيف مقالاتهم.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: (١٥/٨).

(٢) سورة آل عمران: ٨١ .

(٣) سورة آل عمران: ٨١ .

(٤) الإيمان الأوسط، ابن تيمية: (ص٧٨).

التعليق الخامس

من يستقرئ أحوال المشركين سيجد أنَّ أخصَّ أوصافهم، وأكثرها انطباقًا عليهم هي الكذب! الذي كثيرًا ما يذكرُه الله عنهم في معرض سرد أقوالهم وانحرافاتهم، كما في ردِّه زعم الكفار باتّخاذ الولد؛ فردَّ الله سبحانه على هذه العقيدة الضّالة؛ فقال:

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[(١)].

ويقول تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[(٢)].

لذا فإنَّ دعوى إقرار المشركين بالربوبية كذبٌ منهم، وتمويهٌ وسفسطةٌ وإلَّا كيف يسوغ لإنسان أنْ يصرح بقول واعتقاد، ويعمل عملًا يخالف ذلك زاعمًا في الوقت نفسه أنَّه محقق لما خالفه بالعمل، وبخاصّة إذا علمنا أنَّ توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلوهية، ومن

---

(١) سورة الصافات: الآيات ١٤٩- ١٥٩.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣ .

يـزعم الأول، ولم يحقـق الثـاني فهـو مفـترٍ كـذابٌ في زعمـه، ولـيس مستساغًا تصديقهُ في دعواه. كحال من بنى مسجد الضرار، وحلفوا بأنَّهم ما أرادوا إلَّا الحسنى؛ فهم كاذبون بشهادته تعالى عليهم، وهذه مخادعة نبهنا الله إلى عدم الاغترار بها: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [1] وقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ﴾[2].

يقرر المعلِّمي اليماني- وهو من أصحاب الإتجاه الأثري- في كتابه "**رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله**" مسألة مهمة وهي أنَّ الشهادة التزامٌ، فلو قال الكافر: أنا أعلم أنَّ دين الإسلام حقٌّ، ولكني لا أدعُ ديني. أو قال: أنا أعلم أن شهادة أن لا اله الا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه حق، ولكني لا أحب الدخول في الاسلام، أو قال: أنا لا أدع ديني مع أني أشهد أن لا اله الا اللّه، وأنّ محمدًا رسول اللّه، فإنَّه لا يصير بشيء من ذلك مسلمًا، ولا تلزمه أحكام الإسلام... إلى أنْ قال: ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له صلى اللّه عليه وسلم بالرسالة، وأنَّه صادق؛ فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أنَّ الإسلام أمر

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨ .

(٢) ينظر: كتاب بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال: (٦/١).

وراء ذلك، وأنَّه ليس هو المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهرًا وباطنًا[1].

وبهذا نقول في زعم الإقرار من قبل المشركين بتوحيد الربوبية؛ فهو لمَّا خلا عن الإلتزام تبيّن لنا كذب دعواهم وزيف إقرارهم؛ فلم يستحقوا نعمة المقّر بما اشتمل عليه من العلم، وطمأنينة الإقرار، وسكينة التوفيق له.

لهذا يصل المعلّمي إلى النتيجة من وراء ذلك، فيقول: (الأدَّلة التي قدمناها صريحة في أنَّ المطلوب الإعتراف، والتصديق، والتسليم، والرضا، والإلتزام، والعمل بالموجب على وجه التحقيق في كلِّ واحد منها، وذلك لا يكون إلَّا مع العلم... فأمَّا حصول هذه الأشياء بمجرد خبر المعصوم مع جهل المعنى؛ فلا يكون على وجه التحقيق كما هو ظاهر، وقد يجمع الجاهل بالمعنى مع الإعتراف بلا إله إلَّا اللّه على الوجه المذكور الإعتراف بما يناقض معناها، أعني: الشرك، وإنكار حقيقة معناها، أعني: التوحيد، وهكذا يقال في التصديق وغيره)[2].

إذن فقول القائل: لم ينكرْ توحيدَ الربوبية أحدٌ من البشر، إلّا طائفة من الشذاذ، المكابرين، المعاندين، المنكرين لما هو متقرر في

---

(١) ينظر: تحقيق المسألة عند ابن القيم، زاد المعاد: (٦٣٨/٣- ٦٣٩) . وينظر: رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله، وتحقيق معنى التوحيد والشرك باللّه، عبد الرحمن بن يحيى المعلّمي اليماني، تحقيق: الداني بن منير آل زهوي، ط١، ١٤٢٣ه- ٢٠٠٣م: (ص٤١).

(٢) ينظر: رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله: (ص٤٢).

فطرهم؛ فإنكارهم إنَّما كان بألسنتهم مع اعترافهم بذلك في قرارة أنفسهم.

ومن أشهر من عُرِفَ بذلك فرعون؛ الذي قال لقومه - كما أخبر الله عنه - ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[1]، وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾[2] . وكلامه هذا مجرد دعوى لم يَقُمْ عليها بينةٌ، ولا دليلٌ، بل كان هو نفسُه غير مؤمن بما يقول. قال- سبحانه وتعالى- على لسان موسى - عليه السلام - : ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾[3]. وأخبر - عز وجل - وهو العليم بذات الصدور، أنَّ كلام فرعون ودعواه لم يكن عن عقيدة ويقين، وإنَّما هو مكابرة وعناد، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾[4][5] .

أقول: يمكن أنْ يناقش صاحب هذه الدعوى بجنس خطابياته؛ فيقال: بأنَّ كلام المشركين لم يكن عن عقيدة ويقين، وكلامهم مجرد دعوى لم تقم عليه بينة، ولا دليل، وأنَّ قولهم اللساني هو اعتراف لا إقرار، وهم أيضا كاذبون فيه، ولا أعرف لم لا يقال في هؤلاء المشركين ما قاله الشيخ ابن تيمية في فلاسفة

---

(١) سورة النازعات: الآية٢٤ .

(٢) سورة القصص: الآية ٣٨ .

(٣)سورة الإسراء: الآية ١٠٢.

(٤)سورة النمل: الآية ١٤ .

(٥) ينظر: توحيد الربوبية: (ص٦).

الإسلام، وهو يوبخهم قائلاً: (والفلاسفة المتظاهرون بالإسلام يقولون: أنَّهم متبّعون للرسول، لكن إذا كشف حقيقة ما يقولونه في الله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، تبيَّن لمن يعرف ما جاء به الرسول، وما يقولونه في نفس الأمر، أنَّ قولهم ليس هو قول المؤمنين بالله ورسوله والمسلمين، بل فيه من أقوال الكفار والمنافقين الشيء الكثير)[1].

وللقارئ أن يقرأ ما سطره هؤلاء الأعلام في فلاسفة الإسلام، وعلى رأسهم الشيخ الرئيس ابن سينا؛ فهو مع أنَّ كتبه تصرح بتمجيد الله وإيجاد الأدلة على وجوده- بغض النظر عن مدى صحة ذلك أو صحة تصوراته- إلا أنَّ ذلك كلَّه لم يشفع له من تكفيره وعدم اعتبار جميع أقواله وما سطَّره في الإلهيات من قبل الشيخ ابن القيم، فقال عنه : (وكان ابن سينا كما أخبر عن نفسه، قال: أنا وأبي من أهل دعوة الحاكم؛ فكان من القرامطة الباطنية الذين لا يؤمنون بمبدأ، ولا معاد، ولا ربٍّ خالق، ولا رسول مبعوث جاء من عند الله تعالى، وكان هؤلاء زنادقة يتسترون بالرفض، ويبطنون الإلحاد المحض، وينتسبون إلى أهل بيت الرسول، وهو وأهل بيته برآء منهم نسبا ودينا، وكانوا يقتلون أهل العلم والإيمان، ويدعون أهل الإلحاد والشرك والكفران لا يحرِّمون حرامًا ولا يُحلون حلالاً، وفي زمنهم ولخواصِّهم وضعت رسائل إخوان الصفا)[2].

---

(١) الصفدية، لابن تيمية: (٢/٣٢٦).

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم: (٢/٢٧٦).

التعليق السابع

إنَّ اعتراف المشركين بالله تعالى يُحمل على أنَّهم ألفوا هذه الأسم، وغيره من أسماء الأنبياء والملائكة من بقايا النبّوة، وبحكم وجود أهل الأديان الأخرى؛ فالمشركون كانوا يفخرون بانتسابهم لنبيِّ الله إبراهيم عليه السلام؛ لكنَّهم مع ذلك لا يملكون من الإنتساب إليه سوى تصورات ساذجة مجردة عن الإيمان ورثوها عن الآباء والأجداد، كما يفخر اليوم الكثير من أبنائنا في بلادنا الإسلامية بـ "نبوخذ نصر" و"حمورابي" و"سرجون" و"الفراعنة" وآثارهم وينتسبون إليهم، مع أنَّهم يكفرون بهم وبدياناتهم، وهكذا الحال في عرب الجاهلية، وهذه من مزايا التفكير العربي الجاهلي الذي انطوى على التناقضية الدينية والتعددية الفكرية التي سوغت لهم الإيمان بـ " كعبات كثيرة يحجون إليها ككعبة ذي الخَلَصة وهي الكعبة اليمانية، وكعبة الطائف وهي بيت صنم "اللات"، وأشهر كعباتهم كعبة مكة حارسة الوثنية الجاهلية"[(١)].

وقد نظم "جرير بن عطية ابن الخَطَفَى التميمي"، شعراً يفخر بانتسابه لنبيِّ الله إبراهيم وابنه النبي إسحاق عليهما السلام في قبال افتخاره أيضًا برموز الفرس وكبراء الروم، فيقول[(٢)]:

---

(١) تاريخ الادب العربي، العصر الجاهلي، ط٤، دار المعارف بمصر: (٣٩/١)، وينظر: الفكر والوعي بين الجهل – والوهم – والجمال- والحرية، د. هاني يحيى نصري، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤١٨ه- ١٩٩٨م: (ص١٢٨).

(٢) التنبيه والإشراف، للمسعودي: (ص٩٥) .

أبونـــا خليــل الله لا تنكرونـــه فــأكرم بــإبراهيم جــداً ومفخــرا
وأبناء إسحاق الليوث إذا ارتدوا حمائــل مــوت لابســين السّــنَّورا
إذا افتخروا عدّوا الصبهبذ منهم وكسرى وعدّوا الهرمزان وقيصـرا
أبونـا أبـو إسـحاق يجمـع بيننـا أب لا نبــالي بعــده مــن تــأخــرا
أبونـــا خليـــل الله، والله ربنــــا رضـينا بمـا أعطـى الإلـهَ وقــدرا

وإذا كـان الأمـر كـمـا يـزعم مـن يـرى بـأنَّ المشـركين مقـرون بتوحيـد الربوبيـة، فأيضًـا في مكنتنـا أنْ نـزعم أنَّهـم مقـرون بتوحيـد الأسماء والصفات، فقد أقرَّ المشركون ببعض صفات الإله، وأنَّ كل شيء بقضـاء الله وقـدره، وأنَّـه عـالمٌ بكـل شـيء، وقـد وضـع ذلـك في اللوح المحفوظ.

ومن ذلك قول عنترة:

يــا عبــل أيــن مــن المنيــة مهربــي إن كان ربي في السماء قضاها[(١)]

وقول زهير بن أبي سلمى:

فـلا تكـتُمُنَّ الله مـا في نفوسـكم ليخفــى ومهمــا يكــتم الله يعلــم
يُـؤخَّر فَيُوضَـعْ في كتـاب فَيُـدَّخرْ ليــوم الحســاب أو يُعجَّــل فيُـنْقَمِ[(٢)]

لذا يقال: بأنَّهم قد ألفوا هذه الأسماء، الله، الحساب، إثبات علم الله، اللوح المحفوظ، القضاء والقدر، والثواب والعقاب ونحوها كحـال كـثير مـن النصـارى اليـوم ممـن يقولـون بالتثليـث أو مـن العلمانيين، بل حتى من شيوعيي العرب وشعرائهم تجدهم يحمدون

---

(١) ديوان عنترة: (ص٩٢).

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى: (ص٦٨).

اللّه على التوفيق الذي ينالهم في الدنيا مع تصريحهم بنفي الإله، أو التهكم به كما يفعل زنادقة الشعراء، وهذا إنْ دلَّ على شيء؛ فإنَّما يدلُّ على أنّ حمد اللّه وشكرَه إنَّما كان يجري على ألسنتهم نتيجة ما ذكرنا من الإلف بسبب وجودهم في بيئة درجت على أفكار وعقائد؛ فترسخت نتيجة تقادم العهد، وأصبحت جزءًا من الموروث الشعبي والعقل الجمعي، وإنْ كانوا واقعًا يرفضون فكرة الإله والإيمان، ويعدّونها أفيون الشعوب.

التعليق الثامن

لو كان الإقرار بالربوبية أمرًا مفروغًا منه لما وقع الإبتلاء والإمتحان به في القبر، فأوّل سؤال يسأل عليه المرء هو: منْ ربُّك؟، ومن يزعم بأنَّ الربَّ هنا هو المعبود، فهو تحريف للنص، وصرف للمفردة عن ظاهرها من غير أمر محوج إليه، وهذا ما وقع فيه المعاصرون من أصحاب هذا الإتجاه؛ فقالوا: (فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه محمد (ﷺ)، معرفة العبد ربه، يعني معرفة العبد معبوده؛ لأنَّ الربوبية في هذا المقام يراد بها العبودية، لم؟ لأنَّ الابتلاء بالأنبياء والمرسلين لم يقع في معاني الربوبية، ألم ترى[1] أنَّ الله –جل وعلا- قال:﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾[2]، هذه مقتضيات الربوبية ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾)[3].

ويقول أيضًا: (والربُّ هو المعبود، والدليل قوله – تعالى- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[4]. قال

---

(١) هكذا وقفت عليه في النسخة التي بين يدي، وهو خطأ واضح.

(٢)سورة يونس : الآية ٣١ .

(٣) شرح الأصول الثلاثة، صالح آل الشيخ: (١/٢٢).

(٤) سورة البقرة: الآيتان ٢١- ٢٢.

ابن كثير –رحمه الله تعالى- : الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة)[1].

أقول: إصرار عجيب على ضرورة جعل المشركين عارفين بالله تعالى، مع أنَّ منطوق الحديث من أوّله لآخره ليس فيه دلالة على ما ذهبوا إليه، ولا في صرف معنى الربِّ إلى معنى المعبود، فإنَّ الإله والرب مفهومان متغايران لغة واصطلاحًا[2].

ويقال أيضًا أنَّ مقتضى الكلام السابق أنْ يجيب العبد قائلًا: ربّي عيسى عليه السلام، أو موسى عليه السلام، أو عزير عليه السلام، أو غيرهم، لا أنَّ يتحيَّر، ويعجز عن ردِّ الجواب، ويقول: هاء

---

(١) شرح الأصول الثلاثة، صالح آل الشيخ: (٢١/١).

(٢) سبق الحديث عن مفردة الربّ، أمّا الإله فهو يأتي في اللغة لمعن منها: فعال بمعنى مفعول مثل كتاب بمعنى مكتوب وبساط بمعنى مبسوط، واله بمعنى مألوه، أي: معبود، والتأليه: التعبيد، والآلهة : المعبودون من الأصنام وغيرها، والتأله: التعبد والتنسك، تهذيب اللغة، للأزهري: (٤٢٢/٦)، معجم مقاييس اللغة: (١٢٧/١)، القاموس المحيط: (٢٨٢/٤) وتأتي إله من أله: إذا تحير، وأصلها: وله، أبدلت الهمزة إلى واو، والمعنى أن الإله تتحير الألباب والفكر ف حقائق صفاته ومعرفته. لسان العرب:(١٨٨/١)، القاموس المحيط: (١٠٣/١) وقد يأتي الإله من أله إلى كذا: أي لجأ إليه، والمعنى واضح كما نقل عن الضحاك قوله: إنَّما سمي الله إلهًا؛ لأنَّ الخلق يتضرعون إليه في حوائجهم ويتضرعون إليه في شدائدهم، ذكره القرطبي في تفسيره: (١٠٣/١) فيكون المعنى: هو من يفزع إليه في النوائب لأنه المجير لجميع الخلائق من كلِّ المضار؛ وهناك اشتقاقات أخرى تعود بشكل أو بآخر إلى المعنى الأول، وهو المعبود؛ فهو متضمنٌ لها جميعًا.

هـاء لا أدري، وهـو أمضـى عمـرًا كاملًـا في عبـادة هـؤلاء "الآلهـة المزعومين"، كما يُزعم! فلمَّا لم يقل ذلك، دلَّ على أنَّ السؤال هو عن الـربِّ الـذي كثُـر الإخـتلاف فيـه بـين النـاس، ولم يقـف علـى حقيقـة معناه إلَّا أتباع الرسل والأنبياء.

وكـم كنـت أتمنـى - وأنـا أرى هـذا الإصـرار الغريـب علـى الجـزم بتوحيـد المشـركين لـربِّهم في الربوبيـة- لـو كـان مثـل هـذا الحـرص في مـن يشـهد الشـهادتين، ويصـلي العيـدين، ويحضـر الجمـع والصـلوات الخمـس في المسـجد، في ضـرورة عـدم تكـذيبهم، أو إخراجهم مـن الإسـلام وحسـن الظـن بأفعـالهم؛ فمـن الأكيـد أنَّ حالنـا سـيكون أفضـل ممّـا نحـن ومجتمعاتنـا فيـه اليـوم مـن تشـظ وتفتـت وتمـزق، يقـول الشـيخ ابـن تيميـة: (وكمـا أنَّ الـذين يظهـرون الإسـلام فـيهم مـن هـم في الظـاهر مسـلمون، وفـيهم مـن هـو منـافق كـافر في الباطن، إمَّا يهودي، وإمَّا نصراني، وإمَّا مشرك، وإمَّا معطل)[1].

أقول: في هذا النصِّ حديثٌ عن أناس أظهروا الإسلام، لكنَّهم في حقيقة الأمر أقسام: فيهم من هو في الظـاهر مسلم، وفيهم المنـافق الكـافر باطنًـا، وفـيهم اليـهودي، والنصـراني، والمشـرك، بـل وفـيهم المعطل!، رحمَ اللّه الشيخ، فليس هـكذا توردُ الإبل، وصدقًا وحقًّا مـا

---

(١)الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح: (٢/٢٠٦).

كان يردِّده دومًا من أنَّنا أحيانًا يكفينا في إبطال قول القائل مجرد تصوّره حقّ التصوّر[1].

---

(١) يقول الشيخ ابن تيمية في الرد على بعض الصوفية في إحدى مقالاتهم: (إنَّ تصور مذهب هؤلاء كاف في بيان فساده لا يحتاج مع حسن التصور إلى دليل آخر). مجموع الفتاوى: (١٣٨/٢).

التعليق التاسع

هناك حشدٌ هائلٌ من الآيات القرآنية التي تدفع بالمسلم إلى التفكر بوجود خالق عظيم لهذا الكون، ولو كانت معرفة الرب أمرًا مفروغًا منه؛ فلمَ هذا التحشيد بهذا الإتجاه؟ قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1] ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾[2] ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[3] قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[5].

ثم لم يكتف بذلك، وإنَّما دعا إلى مزيد تجلية للربِّ؛ فوصفه بصفات كي نعرف الربَّ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ

---

(١)سورة الروم: الآية٢٢ .

(٢)سورة الذاريات: الآية ٢٠.

(٣)سورة الأنبياء: الآية٣٢.

(٤)سورة فصلت: الآية٣٧.

(٥)سورة الأعراف: الآية٥٤.

ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾[(١)] ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾[(٢)].

بل إنَّ الله تعالى أخذ الميثاق من العباد على الربوبية[(٣)]، فقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[(٤)] .

وتسمى هذه الآية بآية الميثاق، ويلحظ فيها استخدام مفردة الربِّ دون الإله، وفي ذلك دلالات كثيرة ذكرها المفسرون، ونزول

---

(١)سورة الحشر: الآيات٢٤، ٢٣.

(٢)سورة البقرة الآية:٢٢.

(٣) وآية الميثاق تؤكد أن الخلق كلهم مقرون بالله ربا بفطرهم؛ لكنهم نسوا هذا العهد والميثاق حتى جاءت الرسل والانبياء برسالاتهم، وحديثنا في هذا البحث ليس عن هذا العهد والميثاق؛ فهو أمر حصل وانقضى ولم يعرفه إلا أتباع الرسل والأنبياء حينما أرشدهم الله تعالى إلى هذا الاقرار وذلك الميثاق، فالفطر بعد ذلك مسخت بفعل تراكمات الشرك ورواسبه مدى القرون المتطاولة، ومن بقيت فطرته سليمة فقد كانت تحجبها الأغيار البشرية وتلغيها. فإذا ما نامت الأغيار البشرية وتلاشتْ لحدثٍ من الأحداث ظهرتْ الفطرة الإيمانية على السطح تلهمك بلا شعور لذلك نلحظ في قوله سبحانه (:وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَآ (شهدوا لأنهم ما يزالون في عالم الذر، لا تتحكم فيهم الأغيار البشرية. تفسير الشعراوي.

(٤)سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

هذه الآية في بيئة مشركة دليلٌ على وجود ثلّة يُعتدُّ بها تخالف هذا الميثاق.

وفي الاثر عن السدي، قال: (أخرج اللّه آدم من الجنة ولم يهبط من السماء ثم مسح صفحة ظهره اليمنى فأخرج منه ذريته كهيئة الذر أبيض مثل اللؤلؤ؛ فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي، ومسح صفحة ظهره اليسرى؛ فأخرج منه كهيئة الذر سودا، فقال: ادخلوا النار ولا أبالي، فذلك حين يقول: "أصحاب اليمين وأصحاب الشمال"[(١)]

وقد أورد الشيخ ابن تيمية: (فهذا الأثر إن كان حقا؛ ففيه أنَّ كلَّ ولْد آدم يعرف اللّه، فإذا كانوا ولدوا على هذه الفطرة؛ فقد ولدوا على المعرفة، ولكن فيه أنَّ بعضهم أقرَّ كارها مع المعرفة، بمنزلة الذي يعرف الحق لغيره، ولا يقرُّ بها إلاَّ مكرها، وهذا لا يقدح في كون المعرفة فطرية مع أنَّ هذا لم يبلغنا إلاَّ في هذا الأثر ومثل هذا لا يوثق به؛ فإنَّ هذا في مثل تفسير السدي، وفيه أشياء قد عرف بطلان بعضها، اذ كان السدي- وان كان ثقة في نفسه- فهذه الاشياء أحسن أحوالها أن تكون كالمراسيل؛ ان كانت اخذت عن النبي صلى اللّه عليه وسلم فكيف اذا كان فيها ما هو مأخوذ عن اهل الكتاب الذين يكذبون كثيرا؟ وقد عرف ان فيها شيئا كثيرا مما يعلم أنه باطل، لاسيما ولو لم يكن في هذا الا معارضته لسائر الاثار التي تسوي يسن جميع الناس في الاقرار)[(٢)]

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري: (٢٤٢/١٣، ح- ١٥٣٧٢).

(٢) درء تعارض العقل والنقل :(٤٢٣/٨).

التعليق العاشر

لقد أُلِّفت الكتبُ الكلامية في مختلف المدارس لإثبات الصانع، وتحشيد الأدَّلة على وجود الربِّ وبيان صفاته، وأولوا الأمر أهمية بالغة، وكانت هذه المسائل مجالًا ثرًّا وخصبًا للمناقشات والردود بين المتكلمين من جهة، وبين الفلاسفة من جهة ثانية، وكان للناس في المسألة مذاهب شتى، وآراء مختلفة في حقيقة الربِّ؛ فمنهم من عطّله، ومنهم من جسّمه، ومنهم من أثبت له بعض الصفات دون بعض، وكلُّ ذلك إنَّما هو لغياب التصور الدقيق، لمفهوم الربِّ، مع أنَّ الجميع مسلمون، والكلُّ استناروا بنور الوحي، وعندهم كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، ومع ذلك كلِّه اختلفت تصوراتهم، وتباينت مناهجهم، واختلفوا اختلافًا طويل الذيل عميق السيل، ومع ذلك يزعم بعضهم أنَّ المشركين كانوا جميعًا لديهم التصور الواضح للربِّ، ولهذا أقرّوا به. يقول ابن تيمية: (وقول الصابئة والفلاسفة أفسد من قول القدرية؛ فإنّه يقال إذا كان الربُّ عندكم علة تامة موجَبًا بذاته في الأزل لم يزل ولا يزال هكذا، ومعلوله لازم لذاته لا يمكن تأخره عنه امتنع أيضًا أنْ تصدر عنه حركة الفلك وغيرها من الحوادث، وامتنع أنْ يصدر عنه ما يستلزم الحوادث، والعالم مستلزم للحوادث؛ فيمتنع صدوره عن العلّة التامة؛ لأنَّ الحوادث تحدث شيئًا بعد شيء...)[1].

ويقول: (وهذا إذا تصوّره العاقل علم بالضرورة بطلان قول هؤلاء الذين هم من أبعد النّاس عن المعقول الصريح كبعدهم عن

---

(١) كتاب الاستغاثة في الرد على البكري، لابن تيمية: (ص٤١٨).

المنقول الصحيح، ثم هل تقوم بالربِّ الأمور الإختيارية التي يسمونها الحوادث؟ لهم في ذلك قولان كما للمتكلمين قولان، وطائفة من الأساطين القدماء يجوزون ذلك وهو قول أبي البركات صاحب المعتبر وغيرهم من متأخريهم، ومنهم من لا يجوّزه كابن سينا وأمثاله؛ فمن لم يجوّز ذلك ظهر فساد قوله بقدم العالم ظهورًا بيّنًا، ومن جوّزه فيمتنع عليه أن يقولَ بقدم شيء من العالم، فإنَّه حينئذ إذا كان الربّ يفعل شيئًا بعد شيء بأفعال يقوم بذاته، لم يكن قط علّة تامّة لمفعولاته، بل كلُّ ما يفعله، ويُحدِثُه هو فاعل له حين أحدثه وفعله، والمؤثر التّام يستلزم أثره، كما أنَّ الأثر يستلزم مؤثره التام)[1].

إذن ممَّا تقدم يتضح بأنَّ أهل الكلام والفلاسفة كانت عندهم تصورات مختلفة عن الربِّ وصفاته وأفعاله، ولهذا اختلفوا وتباينت رؤاهم مع وجود القران بين ظهرانيهم، ولو كانت المسألة مسألة إحياء وإماتة لاتسع الأمر؛ لكنّها مسألة أعمق من هذا التصور، ومن هذا التحديد، ولم يقف أحدٌ على عمق المسألة كما وقف عليها المتكلمون والفلاسفة، ولذلك اختلفوا، وردَّ بعضُهم على بعض، وحشدوا الأدلّة النقلية والعقلية لإثبات رؤيتهم، وتيقّنوا من الملازمة بين الربِّ وصفاته، وأنَّ تحقيق القول في الصفات والأفعال الإلهية هو السبيل لتحقيق معنى الربِّ وحقيقة الإيمان به، وهذا كلُّه لم يكن متوافرًا عند مشركي الجاهلية.

---

(١) الاستغاثة، لابن تيمية: (ص٤٢٠).

التعليق الحادي عشر

إنَّ من أخصِّ خصائص الربوبية هو التدبير، وهو مطلق التصرف والتأثير في العوالم، وليس ذلك إلاَّ للّه الواحد القهار، وهو أعمُّ من الإحياء والإماتة والرزق.

يقول تعالى: يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة، وغيرها كثير فيها نظر من حيثيات مختلفة إلاَّ أنَّها تُمثِّل عمدة من يقول بإقرارِ المشركين في الربوبية، وأنَّ شركهم كما هو ظاهر الآية يشير لتوحيد الإلوهية الذي أخلَّ به المشركون، فاقول:

لو دققنا النظر في الآية الكريمة؛ لوجدناها تصرخ في وجوه المشركين بأنَّهم أخلُّوا بتوحيد الربوبية أوّلاً، ذلك أنَّ المشركين اتخذوا أولياء من دون اللّه، ولو رجعنا إلى أيٍّ من معاني الولي في اللغة، وحاولنا الوقوف على المعنى الدقيق، وبما يحدّده سياق الآية؛ لوجدنا أنَّهم اتخذوا الآلهة للنصرة ودفع المضار، وبصورة مستقلة عن اللّه كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾[2].

---

(١)سورة الزمر:الآية ٣.

(٢)سورة الرعد: الآية١٦ .

وهذا المعنى هو ما لحظه أهل التوحيد الخالص حينما ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾[1] .

فحقيقة زعم المشركين هو اتخاذهم الولي للنصرة والنفع، ودفع الضّر والشر، وكذب ادّعائهم حينما أرادوا التفلت من دعوة التوحيد وخلع الأنداد والأولياء؛ فزعموا أنَّها تقربهم إلى اللّه زلفى، وهنا يبدأ التخبط الواضح على المشركين والكذب والمخادعة في قولهم، ومحاولة الهروب من حجج الرسل والأنبياء؛ لأنَّ حقيقة الربِّ التي جَهلها المشركون، ولم يقفوا مطلقًا عليها، تتهاوى مع نسبة النفع والضرر لغير اللّه تعالى.

وقد ثبت أنَّ المشركين يعتقدون جازمين بأنَّ آلهتهم لها قدرة ذاتية في إلحاق الضرر واجتلاب المنافع، والدليل على ذلك، قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾[2] وفيها نسبة إلحاق الضرر إلى الآلهة نفسها، وهو ظاهر مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾[3]، قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن

(١)سورة يوسف : الآية ٣٨ .

(٢) سورة هود: الآية ٥٤ .

(٣) سورة مريم: الآية ٨١.

دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾[1].

فالآية –إذن- تُصرِّحُ بأنَّ المشركين يخوِّفون الرسول (ﷺ) بآلهتهم، يقول البغوي في تفسير الآية ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[2] "وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَوَّفُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَرَّةَ معاداة الْأَوْثَانِ. وقالوا: **لَتَكُفَّنَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا أَوْ لَيُصِيبَنَّكَ مِنْهُمْ خَبَلٌ أَوْ جُنُونٌ**"[3].

وروى الطبري في تفسير قوله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)[4]، عن قتادة أنَّه قال: " بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خالد بن الوليد إلى شعب بسقام[5] ليكسر العزى، فقال سادنها وهو قيمها: **يا خالد أنا أحذركها إنّ لها شدة** لا يقوم إليها شيء، فمشى إليها خالد بالفأس فهشم أنفها"[6].

---

(١) سورة الزمر: الآيات ٣٦- ٣٨.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣٦.

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره(معالم التنزيل في تفسير القرآن)، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ: (٩٠/٤).

(٤) سورة الزمر: الآية ٣٦.

(٥) سقام كغراب: واد بالحجاز، حمته قريش للعزى، يضاهئون به حرم الكعبة. معجم البلدان، ياقوت الحموي: (٢٢٦/٣).

(٦)جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري: (٢٩٤/٢١).

ولأجل ذلك أيضًا كان المشركون يؤمنون بتعدّد الإلهة، لأنَّهم نسبوا لكلِّ واحد منها وظيفة من وظائف الربِّ وخصائصه، وبما ينفي وحدانية الربِّ، أو في الأقلِّ مشاركة الرب في التدبير ﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه ليس بالضرورة القول بوجود إلهين متكافئين حتى ننفي إقرار المشركين بتوحيد الربوبية؛ بل جميع الأمم كانت تقر بتعدد الالهة والارباب مع ان الكثير منهم لايعتقد في هذه الالهة أنَّها جميعًا في رتبة واحدة من حيث الصفات والأفعال، بل نجد ذلك عند القائلين بنظرية الفيض من فلاسفة الاسلام وكيف أنَّهم اعتقدوا في الموجودات الثواني التدبير والتصرف.

يقول: (إذا تأملنا في مصنَّفات ابن سينا، ودققنا النظر في اعتقاده بهذا النوع من التوحيد تبيَّن لنا أنَّه لايقيم وزنًا لتوحيد الربوبية؛ لأنَّه يعتقد بوجود متصرف مع الله عزوجل في تدبير الكون وفي الإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة وجلب الخير ودفع الشر، ويكفي لاثبات ذلك أنَّ ابن سينا يعتقد ما يعتقده الفلاسفة الذين يقولون بأنَّه لم يصدر عنه إلاَّ واحد بسيط، وأنَّ مصدر المخلوقات كلِّها: العقول والنفوس، وأنَّ مصدر هذا العقل الفعال هو ربُّ كلِّ

(١) سورة الشعراء: الآيات ٩٦ – ٩٨ .

ماتحته ومدبِّرُه. وهذا يتضمن من التعطيل وجحد الألوهية والربوبية نسبة الخلق إلى غيره سبحانه وتعالى)[(١)].

أقول: وبتحقق اعتقاد التأثير يبطل الإقرار المزعوم بتوحيدهم الربوبية، وقد أخرج أحمد في مسنده عن ابن عباس قال: (بعثت بنو سعد بن بكر ضمامَ بن ثعلبة وافدًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقدم عليه، وأناخ بعيرَه على باب المسجد، ثم عقله، ثم دخل المسجد، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلدًا أشعر ذا غديرتين؛ فأقبل حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه؛ فقال: أيّكم ابن عبد المطلب؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا ابن عبد المطلب. قال محمد: قال نعم؛ فقال ابن عبد المطلب: إنّي سائلُك ومغلظٌ في المسألة؛ فلا تجدنَّ في نفسك. قال: لا أجد في نفسي؛ فسل عما بدا لك. قال أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، آللّه بعثك إلينا رسولاً؟ فقال: اللّهم نعم. قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك، آللّه أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا يعبدون معه؟ قال: اللهم نعم. قال فأنشدك اللّه إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آللّه أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: اللهم نعم: قال ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة الزكاة

---

(١)حقيقة معتقد ابن سينا وموقفه من أنواع التوحيد الثلاثة، تأليف أبي عبد الله أحمد بن مسفر بن معجب العتيبي، مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، الرياض، ١٤٢١هـ: ص٤٢ .

والصيام والحج وشرائع الإسلام كلّها يناشده عند كلِّ فريضة كما يناشده في التي قبلها حتى إذا فرغ، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أنَّ سيدنا محمدًا رسول اللّه وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد، ولا أنقص. قال ثم انصرف راجعًا إلى بعيره؛ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين ولّى: إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة. قال: فأتى إلى بعيره؛ فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه؛ فكان أوّل ما تكلم به أن قال: **بئست اللات والعزى قالوا مه يا ضمام اتق البرص والجذام اتق الجنون.** قال: ويلكم إنَّهما واللّه لا يضران ولا ينفعان، إنَّ اللّه عزّ وجلّ قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به ممّا كنتم فيه وإنّي أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، إنَي قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، قال: فواللّه ما أمسى من ذلك اليوم، وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا قال يقول: ابن عباس فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة) (١).

ومشهورة أيضًا قصّة عدي بن حاتم رضي اللّه عنه: (وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما وكان قد قدم على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ

(١) مسند أحمد: (٢٠٩/٤)، برقم(٢٣٨٠).

﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] قال فقلت له إنَّا لسنا نعبدهم، قال: (أليس يحرمون ما أحلَّ اللّه؛ فتحرِّمونه، ويُحلّون ما حرَّم اللّه فتحلّونه)؟ قال: فقلت بلى، قال(فتلك عبادتهم)، وكذلك قال أبو البختري: أما إنَّهم لم يصلّوا لهم، ولو أمروهم أن يعبدوهم من دون اللّه ما أطاعوهم، ولكن أمروهم؛ فجعلوا حلال اللّه حرامه، وحرامه حلالاً؛ فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية... وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ قال: كانت الربوبية أنَّهم وجدوا في كتاب اللّه ما أمروا به، ونهوا عنه؛ فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء؛ فما أمرونا به ائتمرنا، وما نهونا عنه انتهينا لقولهم؛ فاستنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب اللّه وراء ظهورهم... وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا حيث أطاعوهم في تحليل ما حرّم اللّه، وتحريم ما أحلَّ اللّه يكونون على وجهين:

أحدهما: أنْ يعلموا أنَّهم بدّلوا دين اللّه؛ فيتبعونهم على التبديل؛ فيعتقدون تحليل ما حرّم اللّه، وتحريم ما أحلَّ اللّه أتباعًا لرؤسائهم مع علمهم أنَّهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفرٌ، وقد جعله اللّه ورسوله شركًا، وإنْ لم يكونوا يُصلّون لهم، ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله اللّه ورسوله مشركًا مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتًا؛ لكنَّهم أطاعوهم في معصية اللّه كما يفعل المسلم ما

---

(١)سورة التوبة: الآية ٣١.

يفعله من المعاصي التي يعتقد أنَّها معاصي؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب ...)[١].

ومراد الشيخ ابن تيمية هو عين ما فسّره ابن حزم حين تعرضه لهذه الحادثة بقوله: (لمَّا كان اليهود والنصارى يحرّمون ما حرّم أحبارهم ورهبانهم، ويحلّون ما أحلّوا، كانت هذه ربوبية صحيحة، وعبادة صحيحة، وقد دانوا بها، وسمَّى الله تعالى هذا العمل اتخاذ أرباب من دون الله وعبادة، وهذا هو الشرك بلا خلاف)[٢].

ويقول الشيخ ابن عثيمين:(إنَّ الحكم بما أنزل الله من توحيد الربوبية؛ لأنَّه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته، وكمال مُلْكه وتصرّفه، ولهذا سمَّى الله تعالى المتبوعين في غير ما انزل الله تعالى أربابًا لمتبعيهم، فقال سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٣] فسمّى الله المتبوعين أربابًا، حيث جعلوا مشرعين مع الله–تعالى- وسمى المتبعين عبادًا حيث أنَّهم ذلّوا لهم، وأطاعوهم في مخالفة حكم الله- سبحانه وتعالى-)[٤].

---

(١) الإيمان الكبير، ابن تيمية: (ص٦١- ٦٤).

(٢) الفصل، لابن حزم: (٢٦٦/٣).

(٣) سورة التوبة: الآية ٣١ .

(٤) المجموع الثمين: (٣٣/١).

ولهذا فإنَّ ابن القيم يختصر تعريفات الربوبية في تعريف واحد مختصر؛ فيعرفه بأنَّه: (إفراد الله تعالى بالخلق والحكم)[1].

يقول صاحب كتاب الشرك في القديم والحديث، وهو يشرح عبارة ابن القيم المختصرة في كتابه مدارج السالكين ما نصُّه: (فقوله" إفراد الله بالخلق" يشمل: الخلق الأول، وهو إبتداء خلق النّاس وغيرهم، والخلق الثاني: هو البعث كما قال تعالى: (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ)[2]، وهذه كلها خصائص الربوبية.

وقوله : (إفراده بالحكم) يشمل : الحكم بنفعهم وضرهم، وتدبير أمورهم، ورزقهم، فالله عز وجل هو النافع والضار، وهو المدبّر للأمر والقاضي به، وهو الرّزاق، فهذا حكمُه القدري والكوني، وهو ما يقضي الله به تقديرًا وخلقًا، وهكذا يشمل حكمه الشرعي: وهو ما يقضي الله به شرعا؛ فجميع أحكام الله الشرعية في خلقه من مقتضيات ربوبيته، وهو الذي له الحكم)[3].

بعد هذا كله ليس في مكنتنا أنْ نُسلّم بأقوال نخبة العلماء، حينما قالوا: (فلم يكن المشركون يعتقدون أنَّ الأصنام هي التي تنزل الغيث، وترزق العالم، وتدبّر شؤونه، بل كانوا يعتقدون أنَّ ذلك من خصائص الربِّ سبحانه، ويُقِّرون أنَّ أوثانهم التي يدعون من دون الله مخلوقة، لا تملك لأنفسها، ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعًا استقلالا،

---

(١) مدارج السالكين:(١/ ٤١٠).

(٢) سورة ق: الآية ١٥.

(٣) الشرك في القديم والحديث: (١/ ٦٤).

ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، ولا تسمع، ولا تبصر، ويقرون أنَّ اللّه هو المتفرد بذلك لا شريك له ليس إليهم، ولا إلى أوثانهم شيء من ذلك)[1].

أقول: لا نسلّم بهذه الدعاوى العريضة لخلّوها من المستند القوي ومعارضتها بالحجج القوية التي سقناها سابقًا، نعم، لم يكن المشركون مقرين بتوحيد الربوبية، لسبب يسير هو أنَّهم لم يكونوا يعرفون- أصلاً- حقيقتها، ولم يقفوا- يومًا- على معناها، يقول القاضي عبد الجبار في كتابه تثبيت دلائل النبوة: (وجاء محمد (صلى اللّه عليه وسلم) قوما لا يعرفون الربوبية، ويعبدون الأصنام، وينكرون البعث والمعاد أشد الإنكار، لا يعرفون نبوة ولا طهارة ولا صلاة ولا صياما ولا زكاة، أشدّ الناس نخوة وجبرية وأنفة، قساة جفاة، معاشهم من شنّ الغارات، يسفكون دماءهم، ويئدون ذريتهم فرارًا من العار. ودعاهم (صلى اللّه عليه وسلم) إلى الربوبية، والى الإقرار بالنبوة والبعث والقيامة، وأخذهم بالصدق والوفاء وأداء الأمانة والخضوع للحق، وبالطهارة والصلاة والصيام والاعتكاف والزكاة وصلات الأرحام وقطع السارق وجلد القاذف والزاني وشارب الخمر ومساواة الموالي والفقراء والأعاجم والضعفاء في الدماء، وأخذهم بالبراءة من آلهتهم التي يعبدونها من دون اللّه، ومن آبائهم ومن أديانهم وبالإقرار بضلالهم والتدين بالبراءة منهم، وببذل دمائهم

---

(١) أصول الإيمان: (ص١٦- ١٧).

وأمـوالهم في طاعتـه وبمجاهـدة الأمـم ومعـاداة الجبـابرة والملـوك في طاعته)[1].

وخلاصــة الكــلام أنَّ المشــركين قــد تفوّهــوا بالإعترافــات اللسانية، بحكم الإلف والعادة وشيوع فكرة الربِّ عندهم؛ فكانت تجـري علـى ألسـنتهم ادّعـاءات مـن غير إيقـان بهـا؛ لعـدم وقـوفهم علـى حقيقتهـا، ولـيس في نفوسـهم سـوى الـوهم المسـتحكم بجـوارحهم كلِّها، وهذه هـي طبيعة النفوس الـتي يسـتحكم فيهـا الـوهم، والـذي كثيرًا ما يقود الإنسان نحو المغالطة والخطأ في الحكم، يقول الإمام الغزالـي: (الغلطة الثالثة: سببها سبق الوهم إلى العكس، فإنَّ مـا يـرى مقرونًا بالشيء؛ يظـن أنَّ الشـيء أيضًـا لامحالـة مقـرونٌ بـه مطلقـا، ولا يدري أنَّ الأخصَّ أبدًا مقرونٌ بالأعمِّ، والأعمُّ لا يلزم أنْ يكون مقرونًـا بالأخصِّ، ومثالُه: نفرةُ نفس السليم- وهو الذي نهشـته الحيـة- عـن الحبل المبرقش اللون؛ لأنَّه وجد الأذى مقرونًـا بهـذه الصـورة؛ فتـوّهم أنَّ هذه الصورة مقرونةٌ بالأذى، وكذلك تنفر النفس عن العسـل إذا شُـبِّه بالعذرة؛ لأنَّه وجد الأذى والإستقذار مقرونًـا بـالرطب الأصـفر، فتـوّهم أنَّ الرطـب الأصـفر مقـرونٌ بـه الإسـتقذار، ويغلـب الـوهم حتـى يتعـذرَ الأكـل، وإنْ حكـم العقـل بكـذب الـوهم؛ لكـنْ خُلِقَـتْ قـوى الـنفس مطيعةً للأوهام، وإنْ كانت كاذبة، حتى إنَّ الطبع لينفر عـن حسـناء سُمّيت باسـم اليهـود، اذا وجـد الاسـم مقرونًـا بـالقبح، فظـنَّ انَّ القـبح أيضًا ملازمٌ للاسم، ولذا تورد علـى بعـض العـوام مسـألة عقليـة جليلـة؛ فيقبلها، فإذا قلت: هـذا مـذهب الأشـعري، أو الحنبلـي، أو المعتزلـي،

---

(١) تثبيت دلائل النبوة: (ص٩- ١٠).

نفر عنه إنْ كان يسيء الإعتقاد فيمن نسبته إليه، وليس هذا طبع العامي خاصة، بل طبع أكثر العقلاء المتسمين بالعلوم إلَّا العلماء الراسخين الذين أراهم الله تعالى الحق حقا، وقوّاهم على اتباعه)[1].

- **أخيرا السؤال المحير**

ويبقى السؤال هنا وبعد كلٍّ ما تقدم هو: إنْ كان المشركون كاذبين في ادّعائهم؛ فلماذا لم يكذّبهم سبحانه وتعالى في هذه الدعوى كما فعل في تكذيب المنافقين؟

والإجابة عن ذلك: أنَّ تكذيب المنافقين له كبيرُ الأهمية في فضح الطابور الخامس الذي لم يدّخر جُهدًا في سبيل هدم صرح الدولة الإسلامية من خلال خطره المتمثل في ارتدائه لبوس الإسلام، بينما هو يعمل من الداخل كسكين في خاصرة البناء الإسلامي؛ لذا كان من المهمِّ فضح ادّعاءات المنافقين، وتعريتهم أمام الجمهور؛ ليكون الجميع على حيطة وحذر من هذا العدو الماكر المستتر، وهذا بخلاف مشركي الجاهلية؛ الذين كانت أفعالهم تصرخُ بتكذيبهم؛ فهم يعبدون الأصنام، ويتخذونها أولياء، ويستنصرونها، ويذبحون عند عتباتها، ومن كان هذا سبيله؛ ففعله أوضح ردٍّ لتكذيبه، وهذا ما يتضح من قوله تعالى في ختام الآية التي تتحدث عن زعمهم بتوحيد الربوبية؛ إذ أنّه أومأ إلى أنَّه لم يكن ليهدي سبيل كل كاذب كفار، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

(١) المستصفى، للغزالي: (٥٩/١).

لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾[1].

أقول: لم يقل الله بأنَّ المشركين كاذبون في إقرارهم بربوبيته؛ لسبب واضح هو أنَّه سيفضحهم، ويعمل على تسخيف عقولهم من خلال امتحانهم في مقام الإلوهية، وجميعنا يعلم بأنَّ إثبات الإلوهية يتضمن إثباتًا للربوبية، وهذا ليس بغريب عن الأسلوب القرآني؛ فله نظائر مثل المحاورة التي دارت بين النمرود ونبي الله إبراهيم. فللخصم أنْ يزعم ما يريد، وما يشاء، وعند الامتحان يكرم المرء، أو يهان، وهذا ما حصل بالفعل.

كما أنَّ الله عاملهم معاملة المصدق لادّعاءاتهم، ولهذا حينما كانوا يصرفون العبادة لغيره، كان يقرّعهم بعبارات قاسية من نظير " فأنى يؤفكون"، "أفلا تتقون" وغيرها من التعابير والاستفهامات الإنكارية والتعجبية. ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾[2].

أخيرا:

بهذا أكون قد انتهيت ممّا أردته من تعليقات على هذه المسألة، كتبتها، وليس لي نيّةٌ -والله- سوى الحق، فمن وقف على خطأ مما كبا به القلم، أو طغا فيه الفكر؛ فليغفر لكاتبه أوّلاً،

---

(١) سورة الزمر: الآية ٣.

(٢) سورة الزمر: الآية ٣.

وليرشدني ثانيًا لمواطن الزلل والخلل، وليكن رائده- في كلِّ ذلك- النصح والإرشاد، لا تتبع سقطات الكاتب وعثراته، ورحم الله ابن قتيبة؛ إذ يقول: "من طلب عيبًا وجده، أو أراد إعناتًا قدر عليه، إذا كان متحاملًا متحيّنًا، غير قاصد للحق والإنصاف"[(1)].

" اللهم إنّي أعوذ بك أن أقول قولاً حقّا فيه رضاك، ألتمس به أحدًا سواك، وأعوذ بك أنْ أتزين للنّاس بشيء يشينني، وأعوذ بك أنْ أكون عبرة لأحد من خلقك، وأعوذ بك أن يكون أحدٌ من خلقك أسعدَ بما علمتني منّي " [(2)].

وصلّى الله على سيِّدنا محمد ما غَرَّدت بلابل الأقلام في رياض الطروس، وما بُذِلَت في نصر سنته الأموال والنفوس.

---

(١) الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت:٢٧٦هـ)، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ: (٧٩٦/٢).

(٢) عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب المصرية (تصوير: دار الكتاب العربي)، سنة النشر: ١٣٤٣ه – ١٩٢٥م: (٢٨٩/٢).

الخاتمة

١- توحيد الربوبية، مصطلح حادث لم يكن معروفًا عند أهل القرون المفضلة الثلاثة الأولى.

٢- معنى توحيد الربوبية مختلف فيه عند المتأخرين، ولكل مدرسة وجهة معينة فيه، فمن قصره على الخلق والإحياء والإماتة والرزق، فهو يرى أنَّ المشركين الأوائل مقرون، ومن رآه مطلق التدبير والسيادة والتربية الشاملة لما سبق من المعاني فضلاً عن الضر والنفع، لم ير المشركين مقرين بذلك!.

٣- لم يكن لدى المشركين إقرار، بل عندهم اعتراف لساني، وفرق بن الأمرين، فالإقرار يستدعي السكون والثبات وتوطين النفس مع إذعان وانقياد، وهذا كله ليس موجودًا عند المشركين.

٤- الربُّ والإله، مفردتان لهما حقيقة متغايرة، وللوقوف عليهما ينبغي الرجوع إلى لغة العرب التي نزل بهما القران الكريم، وكما أنَّ في الربِّ قيودًا لابد من مراعاتها؛ فكذا مفهوم الإله فيه قيود تعريفية لابَّد من تحققها كي يقال هذا موحِّدٌ لربِّه توحيد ربوبية، أو إلوهية.

٥- من أهمِّ قيود الربوبية انفراده بالخلق والأمر الذي هو مطلق التدبير أوْ مطلق التصرف، فمن أعطاه لغير الله فقد اتخذه ربًّا، وهذا أمرٌ حاصلٌ عند المشركين؛ بل عند أهل الديانات السابقة كاليهود الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وما ذلك إلا لخلعهم صفة التشريع الإلهي على أولئك الأحبار والرهبان، وهي صفة تعد قيدًا من أهمِّ قيود التدبير الذي هو حق الله على العبيد.

٦- لقد حفل القران بالآيات التي تشير إلى توحيد الإلوهية بخلاف توحيد الربوبية التي جاءت بصورة أقلَّ؛ لأنَّ شرك الإلوهية كان متفشيًّا ، وتصحيح شرك الإلوهية يتضمن الإقرار بالربوبية فكان الاعتناء بالإلوهية أكثر.

٧- كان المشركون كاذبين في اعترافهم، وغير صادقين، فليس كلُّ ادّعاء يؤخذ به، ولا كلُّ دعوى صادقة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١. أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد اللّه بن عبد الرحمن الجربوع، قام بنشره عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط١، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م

٢. اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق: عواد عبد اللّه المعتق، مطابع الفرزدق التجارية – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٣. أساس البلاغة: لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني - القاهرة – ١٩٩١.

٤. أصول الدين الاسلامي مع قواعده الاربعة، الشيخ محمد بن سليمان التميمي، ترتيب الشيخ محمد الطيب بن اسحاق الانصاري المدني:١٤١٠ه- ١٩٨٩م .

٥. إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، د.صالح بن فوزان بن عبد اللّه الفوزان، مؤسسة الرسالة.

٦. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد اللّه بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، المحقق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٧. الإيمان الأوسط: شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: محمود أبو سن، دار طيبة للنشر– الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
٨. البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي (توفي نحو ٣٥٥هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.
٩. بيان الهدى من الضلال في الرد على صاحب الأغلال، تأليف العلامة إبراهيم بن عبد العزيزالسّويّح النجدي، المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٦٨هـ.
١٠. تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى الزبيدي، تحقيق : مجموعة من المحققين، دار الهداية، (د.ت).
١١. تاريخ الادب العربي، العصر الجاهلي، ط٤، دار المعارف، مصر
١٢. الفكر والوعي بين الجهل– والوهم– والجمال- والحرية، د. هاني يحيى نصري، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤١٨ه- ١٩٩٨م .
١٣. تاريخ العرب القديم، توفيق برو، دار الفكر، إعادة الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م
١٤. تاريخ الفكر الديني الجاهلي" محمد إبراهيم الفيومي (ت ١٤٢٧هـ)، دار الفكر العربي، ط٤، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤
١٥. التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، طاهر بن محمد الأسفراييني، أبو المظفر (ت٤٧١هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، ط١، عالم الكتب – لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

١٦. تثبيت دلائل النبوة: القاضى عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني الأسد أبادي، أبو الحسين المعتزلي (ت٤١٥هـ)، دار المصطفى - شبرا- القاهرة

١٧. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ هـ

١٨. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي (ت٤٤٠هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ

١٩. تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، محمد بن إسماعيل الصنعاني، المحقق: عبد المحسن بن حمد العباد البدر، مطبعة سفير، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٢٠. التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

٢١. تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفداء ابن كثير(ت٧٧٤ه)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط١٤٢٠،٢هـ - ١٩٩٩م.

٢٢. تقريب التدمرية: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ
٢٣. التمهيد لشرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، للشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، دار التوحيد، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م
٢٤. التنبيه والأشراف، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي (ت٣٤٦هـ)، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي
٢٥. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، (ت:٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م.
٢٦. توحيد الربوبية، الشيخ محمد بن ابراهيم الحمد
٢٧. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٢٨. الجامع لأحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المالكي (ت:٥٤٢هـ)، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت.
٢٩. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن

محمـد، دار العاصـمة، السـعودية، الطبعـة الثانيـة، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

٣٠. الحـور العـين، نشـوان بـن سـعيد الحمـيرى الـيمني (ت٥٧٣هـ)، المحقق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٩٤٨م

٣١. خزانـة الأدب ولـب لبـاب لسـان العـرب: عبـد القـادر بـن عمـر البغـدادي (ت ١٠٩٣هـ)، تحقيـق وشـرح: عبـد السـلام محمـد هارون، مكتبـة الخـانجي، القـاهرة، الطبعـة الرابعـة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م

٣٢. درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: د.محمد رشاد سـالم، جامعـة الإمـام محمـد بـن سـعود الإسـلامية، المملكـة العربيـة السـعودية، ط٢، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٣٣. الـدلائل والإشـارات علـى كشـف الشـبهات، الشـيخ صـالح بـن محمـد الأسـمري، اعتنـى بـه تركـي بـن عـوض العتيبي، أضـواء السلف، ط١، ١٤٢هـ- ٢٠٠٠م.

٣٤. ديوان زهير بن أبي سلمى، اعتنى بـه وشـرحه حمـدو طمّـاس، دار المعرفة، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

٣٥. ديـوان عـنترة، ط٤، مطبعـة الآداب لصـاحبها أمـين الخـوري- بيروت، ١٨٩٣ .

٣٦. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، جار الله الزمخشري (ت ٥٨٣ه)ـ، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ.

٣٧. الـرد علـى الجهميـة والزنادقـة: أبـو عبـد الله أحمـد بـن محمـد بـن حنبل بن هـلال بن أسد الشيباني (ت٢٤١هـ)، تحقيـق: صـبري بـن سـلامة شـاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

٣٨. الرد على المنطقيين: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ) دار المعرفة، بيروت، لبنان

٣٩. رسالة الاسلام: محمد رسول الله، مصطفى طلاس، ط٣، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ١٩٩٢م.

٤٠. الرسالة العرشية : تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت ٧٢٨هـ)، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ

٤١. رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله، وتحقيق معنى التوحيد والشرك بالله، عبد الرحمن بن يحيى المعلّمي اليماني، تحقيق: الداني بن منير آل زهوي، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م .

٤٢. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود البغدادي الآلوسي، (ت ١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)

٤٣. سير أعلام النبلاء : محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، (ت:٧٤٨هـ)، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، ط٩ .

٤٤. شرح الأصول الثلاثة، صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، مجموعة دروس سنة ١٤١٤هـ، نشرها عادل مرسي(د ت) .

٤٥. شرح القواعد الأربعة، عبد الرحمن بن ناصر البراك.

٤٦. شرح ديوان الحماسة، أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (ت ٤٢١هـ)، تحقيق: غريد الشيخ، وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
٤٧. الشرك في القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا، ط٢، مكتبة الرشد، الرياض، أصل الكتاب رسالة علمية نال بها الباحث درجة العالمية" الماجستير" بتقدير ممتاز، من شعبة العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، بإشراف: الأستاذ الدكتور: أحمد بن عطية الغامدي.
٤٨. الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م
٤٩. صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق الدكتور. مصطفى البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٥٠. الصفدية: تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي(ت ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد رشاد سالم، مكتية ابن تيمية، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ
٥١. الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م
٥٢. العقد الفريد: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت.

٥٣. عقيدة المؤمن، أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، السعودية، ٢٠٠٤م.
٥٤. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت٤٦٣ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م
٥٥. عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب المصرية (تصوير: دار الكتاب العربي)، ١٣٤٣هـ — ١٩٢٥م
٥٦. فرق الشيعة، الحسن بن موسى النوبختي، دار الأضواء، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، بيروت
٥٧. الفوز الكبير في أصول التفسير، الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ «ولي الله الدهلوي» (ت ١١٧٦هـ)، عَرَّبَه من الفارسية: سلمان الحسيني النَّدوي، دار الصحوة — القاهرة، ط٢- ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.
٥٨. في ظلال القران، سيد قطب (ت ١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.
٥٩. القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت— لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
٦٠. قصة الأدب في الحجاز، عبد الله عبد الجبار- محمد عبد المنعم خفاجى، مكتبة الكليات الأزهرية.

٦١. الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية(ت ٧٥١)، تحقيق: محمد عبد الرحمن العريفي ومجموعة، دار عالم الفوائد، مجمع الفقه الاسمي– جدة.
٦٢. كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة- إعداد نخبة من العلماء المطبوع على نفقة وزارة الشؤون الإسلامية في المملكة العربية السعودية.
٦٣. كتاب الاستغاثة في الرد على البكري، لابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبدالله بن دجين السهلي، دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
٦٤. كتاب الحضارة، د.حسين مؤنس، سلسلة عالم المعرفة، العدد، ١٩٧٨.
٦٥. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي
٦٦. لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤١٤ هـ
٦٧. مجموع الفتاوى، تقي الدين، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

٦٨. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت٥٠٢هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ:
٦٩. المحبر، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي (ت ٢٤٥هـ)، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٧٠. مختار الصحاح: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا
٧١. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي–بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م
٧٢. المدرسة الفلسفية في الإسلام بين المشائية والإشراقية، أ.د محمد إبراهيم الفيومي، مطبوع ضمن(أبحاث ندوة نحو فلسفة إسلامية معاصرة) المنعقدة بتأريخ ٧/٣١- ٨/٢/ ١٩٨٩م، ط١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٤ه- ١٩٩٤م
٧٣. مروج الذهب ومعادن الجوهر : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٨٦م
٧٤. المستصفى: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت ٥٠٥هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٧٥. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق : شعيب

الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط٢ : ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
٧٦. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (توفي نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت
٧٧. المعارف، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: ثروت عكاشة، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢ م
٧٨. معالم تاريخ العرب قبل الإسلام، د.أحمد أمين سليم.
٧٩. معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت٣١١هـ) المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م
٨٠. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص: عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الفتح العباسي (ت٩٦٣هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب – بيروت
٨١. معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات: محمد بن خليفة بن علي التميمي، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٩م
٨٢. معجم الفروق اللغوية: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (توفي نحو ٣٩٥هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي
٨٣. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، دار الدعوة.

٨٤. معجم مقاييس اللغة: أبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، المحقق: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.
٨٥. معرفة اشتقاق أسماء نطق بها القرآن وجاءت بها السنن والأخبار وتأويل ألفاظ مستعملة: أبي بكر محمد بن عُزَيْر السجستاني رحمه الله، تحقيق: الدكتور جميل عبد الله عويضة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨ م
٨٦. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ
٨٧. المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، الدكتور جواد علي (المتوفى: ١٤٠٨هـ)، دار الساقي، الطبعة: الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١
٨٨. الملل والنحل، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، صححه وعلق عليه: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط٢: ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م .
٨٩. ميزان الاعتدال في نقد الرجال: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م

٩٠. نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، ابن سعيد الأندلسي، المحقق: الدكتور نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان – الأردن:

٩١. النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان

٩٢. ٩٤- الوساطة بين المتنبي وخصومه، أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

مُحتويات الكتاب